محمود توفيق

بيت طين

ما يمكن أن تصنعه المرأة في حياة الرجل

عصير الكتب

سادر للكتب

بيت طيب



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- رقم الإيداع: 2024/2282م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-382-6
- العنوان: بيت طيب
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

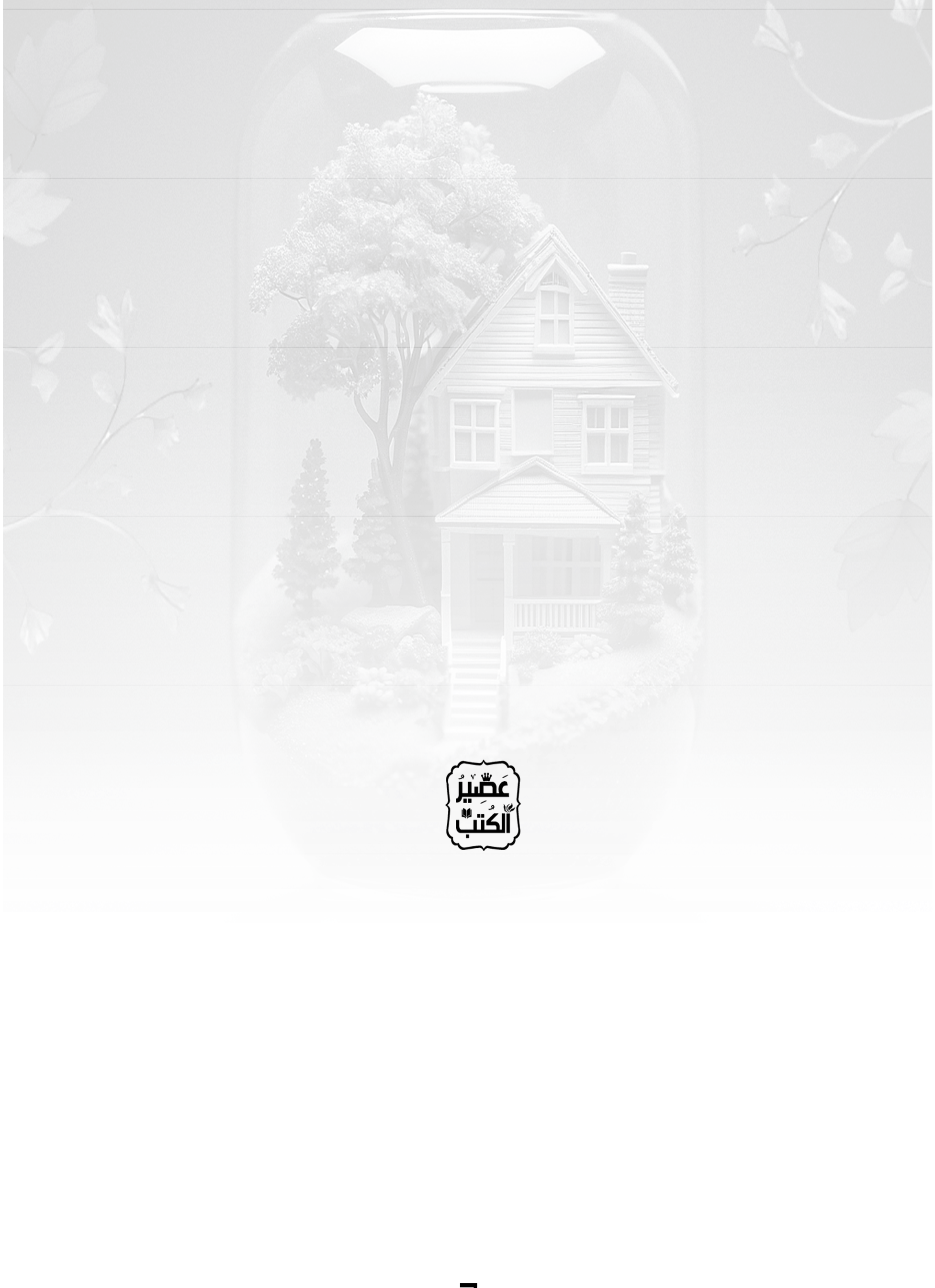
الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب»
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

محمود توفيق

بيت طيب

ما يمكن أن تصنعه المرأة في حياة الرجل



عصير الكتب

طيف البداية

في سن طفولتي، اختفى أحد الجيران وأسرته من الشارع، ثمَّ ظهر أنه أخذ أهله وذهب إلى السكن في شارع متواضع قريب نوعًا ما، وظل أفراد الأسرة الذين يتصفون جميعًا بالوسامة والهدوء والميل إلى العزلة يمرون أحيانًا من شارعنا في طريقهم. في خلال السنوات التالية لرحيلهم، يمرون، ويكبرون عامًا بعد عام، من دون أن يبدو عليهم في أثناء المرور جيئة وذهابًا أنهم يشعرون بأي ذكرى تجاه الشارع الذي كانوا منه، وتحوَّل الأطفال الأربعة، البنتان والولدان بالتتابع إلى شباب، شباب يعلو وجوههم قدر من الحزن الغامض والألم.

ومن مشاهد الحياة التي هالتني، ذلك المشهد الذي رأيته في أول سن المراهقة، لهذا الرجل الأب، الذي أخذ أسرته منذ سنوات وترك شارعنا، الذي صار في آخر الأربعين، أو أول الخمسين، فخمًا وسيمًا، وشعره الطويل الناعم مصفف إلى الخلف كنجوم سينما الخمسينات، كان واقفًا في السوق المزدحم، يرتزق من تأجير طاولة خشبية صغيرة عليها فريقان لكرة القدم، يمارس الأطفال اللعب بالفريقين المشكوكين في الأسياخ عن طريق الأيدي سريعة الحركة، كان في عينيه بهجة مصطنعة لرجل هادئ حسير، غلبته الأيام، ووضعته في الشارع، ليس معه من رأس المال، إلا هذه اللعبة التي ربما جلبها من السفر قصير المدَّة إلى الخارج لأطفاله عندما كانوا صغارًا، وصارت هي الوسيلة الوحيدة اليوم كي يعود إلى البيت بالطعام. كانت لهجته المهذبة المحترمة، ووجهه الفخم الهادئ الوسيم، يصعِّبان عليه مهمة التنكُّر كي يشبه ما وجد نفسه فيه بين الباعة البسطاء من حوله وصخب الزبائن المارين من أمامه ومن خلفه، ولكنه كان مثل كثير من المضطرين في هذا العالم، يحاول أن يبتسم لأطول فترة ممكنة، حتَّى لا يغلق الطاولة إلى الأبد ويعود بغير طعام.

ذلك الرجل، الذي كان يحاول أن يقنع نفسه بأن الأمر بسيط من خلال تلك الابتسامة الموجعة، والذي كان كل ما فيه رغم هذه الابتسامة يحلف بحزنٍ دون أن يسمعه أحد، ويقول في حلفه الذي تنطق به ملامحه: والله؛ لولا أسرتي ما وقفت هذا الموقف أبدًا، ذلك الرجل قد لا يكون أول إنسان مضطر ومهزوم رأيته في حياتي، لكن الهزيمة الهادئة الراسخة على صفحة وجهه الوضيء كانت مروعة، لدرجة أنها بقيت في رأسي كل هذه السنين؛ لقد تشبَّث الرجل بذاكرتي، تشبَّث بها بعنف هو وطاولته، ورَّطني معه في قصته المؤلمة، فكبرت أنا، وخرجت من

مرحلة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، وظل هو كما كان، رجلًا في آخر الأربعين يقف بالشارع المزدحم وعلى وجهه ابتسامة مؤلمة.

على أي حال، كان طيف هذا الرجل الذي يعمل عملًا لا يناسب روحه من أجل الأبناء، مثلما يمكن أن يفعل أي رجل حقيقي إن اضطرته الظروف، هو طيف البداية للكتاب وفكرة الكتاب، ورغم أنه طيف البداية إلا أني كنت أبحث في خلال كل رحلة الكتاب من بعد هذا الطيف وإلى النهاية عن المرأة، المرأة التي يمكن أن تكون في انتظار هذا الرجل عندما يعود إلى بيته متعبًا ومهزومًا، وكذلك المرأة التي يمكن أن تكون في انتظار كل رجل عاد منتصرًا من اشتباكه بالعالم.

كان أول الطريق هنا أن نرى معًا ما يمكن أن يواجه الرجال في هذا العالم، وما كانوا للأسف يتوقَّعونه، وما الذي يمكن أن ينال منهم من سهام الحياة المفاجئة، وما كانوا أبدًا يحذرون منه، لكنني طول الطريق الذي أبحث فيه عن بيت طيب، كنت أحاول أن ألقي الضوء على ما يمكن أن تفعل المرأة في حياة الرجال بجميع أحوالهم، وهي تفعل في حياة الشقي والسعيد، وهي يمكن أن تسعد الشقي وتشقي السعيد، فالرجال الذين أوشك الواحد منهم على أن يهز رأسه نافيًا كأنه لا يصدق ما يدور، ويقع على الأرض من شدَّة رفضه لما هو فيه، يمكن للمرأة بقدرة قادر أن تجعله يتحمَّل ما لا يتحمَّله بشر، ويشعر بأنه بطل ولا أحد في هذا العالم كله أحسن منه، والرجال الذين يمشون على الأرض مرحًا من شدَّة الخيلاء والثقة بالنفس، هؤلاء الجبابرة الذين يبدو عليهم أنهم لم ينهزموا قط، يمكن للمرأة بقدر قادر إن تسلَّطت على الواحد منهم أن تجعله يسقط منهارًا على الأرض ولا يقوم من بعدها مرة ثانية.

تأخرت على أن أقول لكم إنني بعد أن رأيت الرجل، ذلك الجار القديم، ومضيت إلى حال سبيلي، أحببت وقتها أن أتخيل أن زوجته تحبه وتواسيه وتهوِّن عليه، وتربِّت على كفه عندما يعود ويمد لها كفه بالقليل الذي اكتسبه، لأني أشفقت عليه جدًّا من أن يعود هذا الرجل من تلك الوقفة المؤلمة إلى امرأة تُكمل عليه ما فعلت به الأيام؛ وهذا الرجاء القديم المفعم بالإشفاق الذي غلب على قلبي يومها من ذلك المشهد القديم، الذي يبدو أنه ترسَّب في أعماقي، جئت في هذا الكتاب كي أستريح منه كما يستريح الإنسان من أمانة، جئت أبثه إلى كل النساء، كل النساء، كي تفهم منه كل سيدة ما يناسب حياتها هي، وما يبدو أن زوجها بحاجة إليه منها.

هذا الكتاب إذن مهتم بجهد المرأة في إسعاد الزوج وفي التفتيش عما يفتقر إليه، وقد كان لي كتاب من قبل هذا يهتم بجهد الرجل وتفتيشه عما تفتقر إليه زوجته.

ليست العلة إذن من هذا الكتاب ما يمكن أن يشعر به الرجل من فقر إلى المال، أبدًا، بل هو عن كل فقر يمكن أن يشعر به الرجل في قرارة نفسه.

قبل أن يتحرّك
القطار بالعروس

تخيلت أن ابنتي ذاهبة إلى عريسها بالقطار، وأنني أقف أمام نافذتها أحاول أن أقول بسرعة أشياء كبيرة تنفعها قبل أن يتحرَّك القطار في موعده ثمَّ تصل إلى عريسها وتدبر أمر نفسها معه، وكنت أحاول أن أتمالك نبرتي حتَّى لا يبدو عليَّ أنني على وشك البكاء، والأفكار تتزاحم في رأسي بسبب الحنين والخوف، وبسبب ذلك الشعور المؤلم بأنني بعد قليل سأرى وجهها من النافذة لآخر لحظة بعد أن يبدأ القطار في الحركة، ومن بعد هذه اللحظة الرهيبة لن تعود الصغيرة في حمايتي، وهو شعور صعب على كل حال.

كنت أعرف أن مثلها جديرة بأن تبني بيتًا طيبًا، وتنال كل التقدير والمحبة، ولكن كنت أيضًا أعرف جيدًا أن الأمور لا تسير فقط حسب انشراح النفوس وحسب معادن الناس وحسب العاطفة، فرأيت أن أهبها من خبرتي مفتاحًا ثمينًا جدًّا يمكن به فهم كل الرجال، بدلًا من أن أهبها سلسلة ضخمة من المفاتيح المتعددة الأشكال والأحجام، فتجرب هذا وتجرب ذاك حتَّى تنزعج وترتبك، وكذلك بدلًا من أن تقضي عمرها وهي تضرب الباب بكلتا يديها ثمَّ تنهار على الأرض.

أغلب النساء لم تكن مشكلتهن قط في قلة المحاولة، محاولة الفهم، محاولة بناء بيت طيب، بل بالعكس، محاولات النساء دائمًا كانت كثيرة ربما أكثر من اللازم، ولكن كانت مشكلتهن في أن كثيرًا منهن لم يصلن إلى المفتاح الثمين الرهيب، لا حصلن عليه من أحد، ولا وجدنه بالمصادفة البحتة، رغم أنه في الحقيقة موجود أمام البصر والبصيرة، وكانت مشكلة بعضهن الغريبة أنهن عرفن هذا المفتاح، ولكن شعرن تجاهه بالكراهية، وأنكرنه، وأزحنه بالأرجل، كما يزاح شيء تحت السجادة.

وقبل أن يغيب وجه العروس الجميلة، التي تحمل في قلبها آمالًا عظيمة، قلت لها: لا تقتلي البطل في زوجك؛ هذا لأن الرجل ليس من السهل عليه أبدًا أن يعطي ظهره لامرأة أعجبته قد نادت على البطل الذي فيه، وتكلمت معه، واستمعت إليه، وغازلته، وشجعته على أن يظهر لها؛ لأن الرجل إن اعتاد على هذا وتلذذ به لا يستطيع الاستغناء عنه، حتَّى نهاية عمره.

هذا الكتاب المهتم ببناء بيت طيب، والمهتم بدور الزوجة تحديدًا في بناء بيت طيب، هو إذن تفسير لتلك المقولة منِّي عن البطل الذي في الزوج، التي قلتها قبل أن يتحرَّك القطار بالعروس، قام على هذا المعنى الكبير، وهو ألا تقتل المرأة البطل في زوجها، بل تهتم بهذا البطل وتعتني به

وتغازله، فهذا البطل هو الذي يجعل الرجل قادرًا على أن يحطم الصخور تحت الشمس من أجل خبز البنين والبنات، وهو أيضًا الذي يدفع الرجل إلى الآثام العظيمة ويورده المهالك.

وهو ينفع لأي امرأة تحاول أن تبني بيتًا طيبًا، بيتًا سعيدًا يتجنَّب رمادية الكثير من البيوت من حولها؛ ينفعها لو كانت تعيش مع رجل يتمتع بظروف طيبة وثقة ظاهرة وشخصية جاذبة، فيرفع الكتاب من مستواها في اللغة التي تتحدث بها مع ذلك البطل الواضح في زوجها، وينفعها بشدَّة لو كانت تعيش مع رجل قد تعرَّض البطل الذي فيه للاضطهاد وغلبته الظروف في بعض الجولات، وكثير هم، فيعطيها الكتاب خريطة كي تصل بها إلى ذلك البطل الذي انزوى داخل زوجها المغلوب أو زوجها المرهَق نوعًا ما.

وقد جاء الكتاب مليئًا بما يمكن أن تفعل النماذج الطيبة الصالحة من النساء مع الرجال، وكذلك مليئًا بما يمكن أن تفعل النماذج المرهقة من النساء التي تتعب الرجال وتغيظ البطل الذي فيهم، وهذا حتَّى تظهر خريطة الحياة بما ينفع الاهتداء إليه بكل شعور بالأمان، وما يجب الابتعاد عنه بكل بصيرة، حتَّى يتبين في بحر الحياة ذلك الفارق بين أنوار الفنارات ومشاعل القراصنة.

لا تقتلي البطل في زوجك

هناك وجوه متوحشة مرَّت بي، ولا أقصد بالتوحش هنا أي معنى رديء مزعج، بل أقصد تلك الوجوه التي رأيتها غالبًا مرة واحدة وعليها تعبير لم أرَ مثله، ثمَّ مضت في عاصفة الحياة المديدة بعد أن طبعت أثرها على طمي الذاكرة. هذا هو التوحُّش، الجميل، والصعب، من هؤلاء الذين لا أعرفهم ولا أنساهم.

من هؤلاء امرأة بلدية رأيتها في أواخر طفولتي وكانت تركب خلف زوجها على الموتوسيكل في شارع مزدحم، وحدث احتكاك بين زوجها وبين رجل سيئ المزاج وغضوب، وقال الرجل الغضوب الذي يتمتَّع بقدر من القوة البدنية في حجم سوء مزاجه: توكَّل وامضِ فمعك زوجتك؛ ولكن يبدو أن الزوج أحب أن يبدي نوعًا من الخشونة والمرجلة أمام زوجته، وأصرَّ على التشاجر مع الرجل، وعلى ما يبدو أنه كان يعتمد على أن الناس سيحجزون بينهم بسرعة، ولكن توقعاته قد خابت عندما قام بتعليق الموتوسيكل على الحامل ونزل، فما هي إلا ثوانٍ حتَّى كان الرجل قد أوقع به أرضًا، وصعد فوقه وأخذ يلكمه. أما ما لم أستطع نسيانه فهو ما على وجه المرأة من تعبيرات وهي ترى زوجها تحت الرجل لا يستطع أن يدفع عن نفسه ذلك الرجل الشديد، ما كان على وجهها شيء لا يمكن وصفه من هول وصدمة، كأنها تشاهد معالم انهيار العالم كله، كل العالم، بما فيه من مبانٍ وجسور ومعابد وطرقات.

وأخذت تضرب الرجل على ظهره بيديها الضعيفتين، وهي تعض على شفتها، وتسبه، تريد أن تشغله عن زوجها ويلتفت لها، ولما فشلت خلعت فردة (الشبشب) وأخذت تضربه به على ظهره ورأسه ضربات لا قيمة لها في تغيير الصراع، كانت تنهج في أثناء الضرب كأنها تعزق بالفأس من شدَّة الرغبة في أن تفعل شيئًا، وكانت عيناها على تلك النظرة التي توحي بانهيار العالم، (اتركه، اتركه يا ابن الـــ...،.. اتركه).

ركبت الموتوسيكل خلف زوجها المضعضع المكسور الخاطر، وأخذت تربت عليه تواسيه وهما يمضيان من أمامي تبتلعهما الحقب والأزقة، ولا تزال نظرات عينيها مطبوعة في طمي الذاكرة.

لا أدري ما الذي ذكرني بهذا الهمِّ الذي يعشش في الذاكرة وأنا أكتب أول الفصول في كتابي، عن المعنى الأساسي في كتابي، وهو ألا تقتل المرأة البطل في زوجها، ولكن لا بأس، كان من حظ النساء أن يبدأ الكتاب بامرأة طيبة مخلصة هي في الحقيقة تمثل من وجهة نظري أغلب النساء، إنها لم تتحمَّل أن ترى أحدًا وهو يقتل البطل في زوجها، وأظن أن أي زوجة طبيعية لا تتحمَّل

أن يتعرَّض زوجها للضرب والإهانة من إنسان آخر فيبدو كسيرًا ضعيفًا، ولا تتحمَّل أن يتعرَّض زوجها للنصب والاحتيال ويأخذ منه أحدهم ثمرة شقاء عمره فيبدو ساذجًا مغفلًا، ولا تتحمَّل أن ترى زوجها يتوسل إلى أحد ويستعطفه ويتذلَّل إليه فيبدو وضيعًا معدوم الكرامة. المرأة الطبيعية لا تحب أن تعيش وترى بعينيها زوجها مهزومًا مبعثرًا من أي إنسان، وقتها ربما تكتشف لأول مرة ومهما كان الوضع بينهما أنها تحبه، أو تعزه، أو أنه رغم كل شيء لا يهون عليها.

هذا أشهد به في بداية الكتاب، وهو أن المرأة الطبيعية لا يمكن أن تتقبَّل أن يقتل أحد ما ذلك البطل في زوجها، ولا حتَّى أن يتغلب عليه أبوها وإخوتها الرجال، والاستثناءات من ذلك هي المرأة التي تخون زوجها مع رجل آخر، فهي تقتل البطل في زوجها بدرجة وحشية لا تقل عن الوحشية التي تعرَّض لها صاحب الموتوسيكل بل تزيد، وكذلك المرأة التي تستغل ثقة زوجها وتنقل أملاكه إليها وتتركه للندم والإفلاس وانعدام الثقة بالنفس وألسنة الناس، فهي تقتل البطل في زوجها بدرجة وحشية لا تقل عن الوحشية التي تعرَّض لها صاحب الموتوسيكل بل تزيد.

والكلام في الكتاب ليس عن المرأة المتوحشة التي تدمر حياة الرجل وتقضي عليه، الكلام هنا في الكتاب عن السيدة الطبيعية التي لا ترضى أبدًا أن يقتل أحد ما البطل في زوجها بطريقة وحشية مباشرة لا ينجو من آثارها السريعة، مثل زوجة صاحب الموتوسيكل، ولا ترضى أن تقتل هي بنفسها ذلك البطل في زوجها بوحشية الخيانة في الشرف أو في المال، ولكن السيدة الطبيعية تلك يمكن لها أن تقتل البطل في زوجها أو تضعفه، بتدابير أخرى متدرجة، بوحشية أقل، وباستيعاب ضعيف لفداحة الأمر؛ وهذا بالطبع ليس حال كل السيدات الطبيعيات.

أظن أن مصطلح (البطل) لا يزال حتَّى هذا السطر مثيرًا للتأفف والضيق، أنا تخيلت نفسي أقف أمام امرأة وجهًا لوجه، وأطلب منها ألا تقتل البطل في زوجها، نعم بالكلمات نفسها، وشعرت أنه من الضروري أن أوضح على الفور ما هي تلك البطولة، من دون التقاط أي أنفاس، لأن المرأة ستجيبني في الغالب بهذه الإجابة: هذا الذي تتكلَّم عنه غير موجود حتَّى أترصَّد له لأقتله، وستشير لي بيدها إشارة معناها: ابحث عما تسأل عنه في مكان آخر، فليس لدينا أي بطل هنا، هيا.

وقدرة المرأة على نفي شيء من أساسه هي قدرة رهيبة، وهي تُحسَد على هذه القدرة، وأثر نفيها على الرجل عجيب، فما تنفي المرأة وجوده في زوجها لزوجها يحتاج منه إلى أن يثبته مائة إنسان آخر كي يتخلص من أثر نفيها وإنكارها، وقد لا ينجح في التخلص التام من ذلك الأثر؛ وهذه بالمناسبة فكرة أساسية من أفكار هذا الكتاب.

إذن سأوضح معنى تلك البطولة لهذه المرأة التي تخيلتها، وبسرعة، قبل أن تدمر معنوياتي بنفيها الجليدي الساحق، وأنا وقفت أمامها لا لكي أنتصر للرجل عليها، ولكن لأنتصر للرجل بها، إن كان جديرًا بذلك، أنتصر له بامرأة تقدره وتعذره وتعينه على الدنيا، أنتصر له بامرأة بطلة قد تحاول إن لزم الأمر أن تتلقى نيابةً عنه بعض اللكمات، مثل تلك التي كانت خلف زوجها على الموتوسيكل.

ليس البطل الذي أقصده هنا هو الذي جاء في خيال القارئ للوهلة الأولى، لا أقصد به أن يكون الرجل بالضرورة رجلًا فائق القوة، أو مفرط الشجاعة، أو نابغة حاد الذكاء، أو منتقمًا يستطيع أن يصطاد أعدائه وخصومه ويقتص منهم واحدًا وراء الآخر ولا يفلت منه أحد، ولا أقصد به أن يكون صاحب إنجازات رياضية أو حربية أو علمية هائلة يعرفها العالم كله، فبهذه المقاييس أغلب الناس ليسوا أبطالًا ولن يكونوا، وبالتالي لن يصلحوا للزواج، أنا لا أتكلم عن استعداد جبار لدى شخص ما للبطولة، الأمر أقل صعوبة من ذلك بكثير، إنما أتكلم عن الضبط الداخلي في خلْق الله للرجل عمومًا.

ورغم هذا التوضيح المبدئي إلا أني أظن أن رؤية الأشياء يجعلها أوضح ممَّا تبدو عند الكلام عنها، فالمشهد يختصر أشياء كثيرة بلغة بصرية من الصعب تكذيبها، هيا، يمكن لنا الآن ركوب عربة الزمن التي تمَّ تخيلها في عدة روايات، ونذهب إلى أزمنة قديمة مختلفة، ونرى المشهد نفسه تقريبًا في عصور مختلفة ومجتمعات مختلفة، نهار داخلي، على لغة كتاب السيناريوهات، حيث يسمع رجل ما فجأة وهو داخل بيته أو كوخه أو خيمته نداء جماعته للدفاع عن المجتمع، القرية، أو العشيرة، أو زمرة الصيادين، أو أيًّا ما كان تكوين ذلك المجتمع البسيط، فيلقي بالكوب الذي في يده، ويهب واقفًا، ويهرع إلى سلاحه، وقد غلى الدم في عروقه وهو ذاهب من أجل حفظ الأعراض والممتلكات والجيران من الأهل، حيث كان الرجل مؤهلًا نفسيًّا وتربويًّا للدفاع عن النساء وعن الصغار وعن ممتلكات الأهل ومنابع المياه والكلأ والقطعان، ولو كلفه

ذلك حياته. وينتهي المشهد السريع الذي بدأ بحالة هادئة في كل تفاصيله، ثمَّ اكتسى بحالة من الغضب والضوضاء والاندفاع، ينتهي برؤية مقربة لوجه الزوجة، الذي امتلأت نفسها بخليط من المشاعر القوية في حجم الحدث، ونرى في عينيها نظرة الأهمية التي تنظر بها إلى زوجها وهو يحمل سلاحه ذاهبًا للقيام بالواجب.

هذه النظرة التي كانت في أعين الجدات، في الغابات، وعند الأكواخ المتواضعة عند شواطئ الأنهار، وفي البادية، والمجتمعات الغجرية، وفي القرى الزراعية، وبلدات رعاة البقر، وتجمعات الصيادين على السواحل، تلك النظرة التي تؤكد على أن الرجل مهم حقًّا، كانت تلخص معنى البطولة التي أشير إليها.

نعم، أعلم أنه لا يفعل ذلك، زوجك لا يفعل ذلك، فقد توقف أغلب الرجال عن فعل ذلك أمام النساء، لكن هذا الذي كان يحدث لم يكن هو البطولة نفسها، بل كان تعبيرًا صادقًا ومباشرًا وحاسمًا عنها، عن شيء في الرجل أو يجب أن يكون فيه، إذن هذه البطولة هي موجودة، ولكن بأشكال أخرى من التعبير، ربما أقل حدة ممَّا كان، لكنها موجودة، وتستحق الحفاظ عليها، والتعامل بقدر من الاحترام مع ميراثها الذي تغيَّر بتغيُّر المجتمعات، بعد أن تغيَّرت المظاهر التي يعبر بها الرجل عن حسه الدفاعي.

وهذه النظرة في أعين الجدات بقيت، بقيت بشكل ما في ضمير النساء، ربما بقيت كفكرة جميلة، عن الرجل البطل، صاحب (المنعة)، المنعة التي عند الرجل أقصد بها، بناء على مشهد ذلك الشخص الذي ذهب يمسك سلاحه، هو أن الرجل يليق به ويُنتظَر منه ألا يكون من السهل عليه أن يستسلم، ليس من السهل عليه أن يتنازل للآخرين، وليس من السهل عليه أن يؤخذ منه شيء بالقوة، وله في العموم إمكانيات تظهر في حالة التنازع والخصام.

هذه هي المنعة، الرجل يرسم حدود سلطته ونفوذه التي يجب ألا يشعر الآخرون بسهولة تخطيها، ولو تخطاها أحدهم فلا بد أن يدفع ثمنًا ما، ومن جملة المنعة التي عنده أنه لا يتعامل بخفة مع وجود امرأة وأطفال في حياته، هو في الحالة النقية التي فُطِر عليها يمكن أن يتعرَّض للموت في سبيل حمايتهم إن لزم الأمر، وهو غيور، وصلب، ولا يسمح لأحد بأن يمتد له نفوذ واضح حتَّى يصل إلى امرأته، هكذا هو استعداد الرجل الطبيعي، والبيئة المحيطة وظروف العيش تكذِّب هذا الاستعداد أو تصدقه.

وهذه الإحاطة كانت ضرورية جدًّا للمرأة، فالمرأة لديها الاستعداد العاطفي القوي جدًّا، والرجل هو الذي يوفر لهذا الاستعداد العاطفي القالب الراسخ، يصنع الحوض الذي يحيط بهذا الاستعداد العاطفي ويحميه من الهدر وسوء الصرف، يصنع شيئًا يعترف به الآخرون، يصنع شيئًا يحمي عواطف المرأة من أن تُهدر مثل أي شيء رخيص عديم القيمة.

والعمل على القضاء على بطولة الرجال بشكل عام، وتخفيف لون الرجولة شيئًا فشيئًا، لو استمر على نفس هذه الوتيرة السريعة، سينتهي الأمر بأن تفقد المرأة بجسدها وعواطفها أي قيمة، لأن الرجال وقتها، بعد أن فقدوا بشكل واسع (ضبط) البطولة فيهم، لن يجدوا في أنفسهم مبررات كافية لحماية امرأة ما، لن يجدوا في أنفسهم مبررات كافية لتكوين أسرة من الأساس، وسيجدون أنه من الأنسب لهم أن يتركوا العواطف كل العواطف للملابسات، وستضطر النساء إلى تصديق أي ادعاءات عاطفية لأنه لم يعد هناك أي أحواض تحيط بالعاطفة، وستجد المرأة نفسها تبذل أغلى مشاعرها لإنسان قد يكون هوائيًّا متلاعبًا، لأنها تخاف أن تخسره، وتنكسر لمن لا يحق له أن تنكسر له، وتتعرَّض للاستغلال.

من المهم جدًّا أن يبقى الرجل رجلًا للمرأة، أو على أقل قدر يحافظ على حد أدنى من الرجولة، حتَّى تنضبط عواطفها، ومما لا يقل في الأهمية عن ذلك، هو أن تبقى المرأة امرأة للرجل، أو على أقل قدر تحافظ على حد أدنى من الأنوثة، حتَّى تنضبط عواطفه، فمصدر بعض المشكلات الأسرية، ربما كثير من المشكلات في الحقيقة، هو نابع من أن الرجل قد قدم قدرًا من البطولة والرجولة أقل ممَّا كان يأمل الطرف الثاني، أو أساء فهم البطولة وجافى امرأته وجعل بطولته سوء عشرة، ونابع أيضًا من أن المرأة قد قدمت قدرًا من الأنوثة أقل ممَّا كان يأمل الطرف الثاني، وهذه الأنوثة المقصودة هي ليست التألق في العلاقة الحميمية فقط، بل هي قبل ذلك اللين ورقة التعبير والحنان والتدلل والصوت الخفيض وقبولها لجناح زوجها فوقها، أو أنها أساءت فهم الأنوثة وظنت أنها تعني قلة النضج وكثرة الطلبات واستغلال الزوج وتحميله فوق طاقته، واعتباره أبًا لذيذًا يدلل طفلته الجميلة.

بقيت في ضمير النساء المعاصرات تلك النظرة في أعين الجدات، تلك النظرة إلى البطل، جيلًا بعد جيل، ولكن من ناحية أخرى أخذت المجتمعات تتغير كما نعرف، ولم يعد الرجل يهرع لجلب سلاحه إلا في بعض النطاقات الضيقة، ومن ثمَّ تغيرت الطرق التي يفصح بها الرجل عن

بطولته التي فيه، بعد أن أعادت المجتمعات الحديثة تشكيله بطريقة قوية وعنيدة، لكن لا يزال التمتع بالمنعة هو الأساس في رجل طبيعي، وهي التي تترجم نفسها في أبسط أشكالها وأكثرها مباشرة وأكثرها انتشارًا في أن يعود الرجل إلى الدار بعد يوم من العمل الشاق، وهو ينوي أن يذهب بالغد، وهو يعلم أنه يفعل هذا من أجل أن يمنع الجوع والخوف والتعري والمرض عن أهله، وأهله يعلمون أنه سيفعل هذا بالغد، ولا يخشون من أن يخرج ويستهتر بالأسرة ولا يعود مرة ثانية، أبسط شكل من أشكال البطولة والمنعة هو في قبول الرجل أن ينفق على بيته حتَّى آخر العمر، وقبوله أن يستمر في الكدح من أجل أهله؛ وهو بطل بقبوله هذا الشرط الضروري من شروط الحياة الأسرية، بطل بما أنفق؛ وهو إذا أنفق، ولم يبدد أغلب ماله على مزاجه الشخصي ونزواته، ولم يتقبل على نفسه البطالة، فهو جدير وقتئذ بالنظرة نفسها التي كانت من نصيب أجداده، الذين كانوا يثبتون وجودهم وقت الخصام والعداوات، لأنه قام بما يمليه زمنه عليه وهو الإنفاق على أهله، وأجداده كانوا يقومون بما أملته عليهم أزمنتهم، لذا فهو يستحق من زوجته أن تشعر تجاهه بالأهمية، كشعور المرأة في الأزمنة القديمة تجاه زوجها.

ومما يؤكد على أحقية الرجل الملتزم باحتياجات أسرته في هذا الزمن بأن تشعر زوجته بأهميته، هو أن الرجل كان منذ نصف قرن فقط يمكن أن يختار من بين أطفاله طفلًا قوي البنية وخشن الكفين ويخرجه من صفوف الدراسة، كي يعينه في زراعة الأرض، مصير الطفل اختلف عن مصير إخوانه إلى الأبد، وسيكون الوحيد فيهم الذي تلقَّى قسطًا بسيطًا من التعليم بينما هم فيهم المدرس وفيهم الطبيب وفيهم المهندس، كل هذا من أجل أنه الأفضل جسديًّا في فلاحة الأرض، وعلى النقيض من ذلك يمكن للرجل الآن أن يبيع ميراثه في الأرض الزراعية ولم يكن يحب أن يفعل ذلك، وهذا من أجل أن يدخل ابنه الجامعة الخاصة التي يريد الدراسة فيها، هذا فارق واضح لصالح رجل اليوم إذن، وهذا تعبير آخر عن بطولة الرجل.

وشعور المرأة بأن زوجها مهم هو غير مذل للمرأة، لا علاقة له بالذل أبدًا، بل هو شعور هي في حاجة إلى أن ينبع منها ربما أكثر من حاجة زوجها إلى أن يصل إليه منها، فشعورها بأهميته يحميها ويحصنها ويزين زوجها في عينيها، ولو لم تزينه ظروف الحياة.

ويمكن أن نقول إن هناك مشاجرة قد نشبت داخل المرأة بين احتياجها لرجل بطل ظاهر البطولة، شبيه بالرجال الأوائل، هناك شيء عميق في تركيبتها يجعلها تريد الاستئناس برجل

يحتويها ويحافظ عليها ويدافع عنها، بمظاهر التعبير المختلفة عن البطولة وعن المنعة، وبين أنها وجدت نفسها في هذه الأزمنة الحديثة تعيش في ظروف تعطيها قدرًا أكبر من الاستقلالية التي كانت للجدات، ولم يعد من المطلوب منها أن تتحمَّل ما تحملته الجدات، ولم تعد ترى الحياة من خلف كتف زوجها مثل جداتها، وعالمها قد توسَّع كثيرًا، بالتعليم، وبالخروج للعمل، وبالاطلاع على تفاصيل العالم الواسع من خلال الفضائيات وشبكة الإنترنت.

هي إذن كأي إنسان يفضل أن يتخفف من القيود إذا جاءت الفرصة لذلك، وفي ذات الوقت، وبسبب التكوين الأنثوي هي ترغب في أن تكون محكومة، ترغب في أن تكون مضمومة لرجل كريم، وهذا الـ (كل شيء) يتبدى في الذوق الظريف للفتيات، اللائي يتكلَّمن عن شوقهن إلى رجل فيه صفات متناقضة، فهو غيور وقوي وحاسم، وفي ذات الوقت متفتح ومتفاهم وواسع الأفق، حنون لدرجة يوشك أن يكون مطربًا عاطفيًّا، وهو خشن لدرجة أن يكون متوحشًا مثيرًا لمراهقة تريد أن ينقذها رجل من الغرق، ناجح وعملي ويتخذ قرارات في اجتماعات شديدة الأهمية، وفي ذات الوقت يمكن أن يترك عمله في وقت عصيب من أجل أن يخرج معها في عيد الحب ويهديها وردة حمراء؛ إن المشاجرة الداخلية تنعكس على هذا الذوق الذي يشعر الرجل الذي يقرأ تلك الكلمات التي تعبر عن ذوق الفتاة المتوهجة المشاعر أنه هو نفسه لم يتشرف بلقاء رجل يملك كل هذه الأشياء وعكسها في تناغم مذهل.

وما يحدث في حالات ليست بالقليلة، هو أن تجد المرأة نفسها بعد الأيام الأولى من الزواج التي تكون فيها مشحونة بعواطف أنثى صغيرة متعطشة للحب، تجد نفسها تبدأ في تخفيف حدة المشاجرة داخلها، تبدأ في الميل إلى الاختيار الآخر وهو ألا تكون محكومة، وتحب أن تمضي في الحياة بجوار الرجل كتفًا بكتف، وأن تضعف البطل الذي في زوجها، لأن هذا نمط حياة سهل ومريح على ما يبدو، ولأن الرجل لم يعد خيالًا شاهقًا مثلما كان الوضع قبل العيش معه تحت سقف واحد، بل إنسانًا رأت نواحي ضعفه وتقصيره، بل قد ترغب في أكثر من ذلك في بعض الأحيان بنهم واضح وهو أن تسيطر عليه سيطرة تامة وتقتل البطل؛ حتَّى حب الرجل الشديد لامرأته قد تفرح به امرأة جدًّا وتشكر الله على حظها الجميل، ولكن هناك امرأة أخرى إذا أحبها زوجها حبًّا شديدًا فهي تقلِّب في هذا الحب بطمع تاجر عندما يجد زبونه مولعًا بالسلعة،

وتتعامل مع هذا الحب على أنه شيء يمكن استثماره، وتتخذه وسيلة لتحقيق هدفها بأن تتحوَّل إلى شخص يفرض سلطته، بدلًا من أن تسعد بهذا الحب وكفى.

طبعًا هذا كلام مجمل، ولا تسير الأمور على هذا النحو دائمًا، فقد استحدثت المرأة نموذجًا للبطل، أو بالأحرى قد استحدثته ظروف الحياة، فبسبب اختلاف نمط الحياة المعاصرة عن الأنماط الأولى، فإنها من ناحيتها ارتضت في ضميرها ببطل معاصر يعوِّض عن صاحب الدم الحار القديم، إذا وجدت إليه سبيلًا، وهو الرجل الذي له ثقل في وسطه الاجتماعي، الناجح في عمله، ميسور الحال أو الثري بشكل واضح، والذي له علاقات تحميه وتنفعه، ويستطيع أن يحل مشكلاته بطرق أسهل من الحلول التي يلجأ لها غيره، ولا يقف في أي طابور عند أي جهة حكومية، وأغلبية حياته ليست واقعة تحت بند الاضطرار، ولا ينخفض للريح، ويستطيع أن يهدد الآخرين ويتوعدهم ويدق على الطاولة، هذا هو البديل لبطل الأمس، بل يبدو متفوقًا وصقيلًا ومقنعًا أكثر من بطل الأمس، وهو الرجل الذي ترضى في الغالب بأن تكون مضمومة إليه بقدر من التباهي والرضا، وهو الرجل الذي تنظر إليه نظرة من تشعر بالأهمية.

وطبعًا السؤال المطروح هو: أين يذهب الذين لا يهرعون إلى السلاح المعلق في البيت كرجال الزمن الماضي، ولا يدقون على الطاولة كالنافذين والأثرياء وأصحاب المعارف القوية أبطال الأزمنة الحديثة؟ ومن سيساعدهم في الاحتفاظ بالقدر المأمول من البطل الذي فيهم، الذي تعمل أغلب الظروف ضده؟

هذا الكتاب من ناحية ما يهتم بإعادة الاعتبار إلى الرجل العادي، ليس موجهًا للدفاع عنه هو فقط، ولكنه يهتم به على نحو خاص، الرجل العادي الذي لم يصعد على المنصة من أجل التكريم قط، وربما لم يمسك ميكروفون الإذاعة ولا مرة واحدة في مدرسة طفولته، ولم يستنجد به الزملاء في الثانوية الذين تعرضوا للضرب كي يثأر لهم، ولم يكن فتى أحلام جماعة من الفتيات من الأقارب والجيران وزميلات الأخت، ولم يكن في الواجهة عند رفع طلبات متذمرة للإدارة، ولم يرفع صوته غاضبًا تحت سقف النقابة، ولم يُحمَل على الأكتاف في أي مظاهرة، ولم يكن رئيس اتحاد ملاك في العمارة السكنية، ولم يكن زعيمًا محليًّا في الحي السكني يلجؤون إليه للصلح بين عائلتين متخاصمتين، وحتَّى لم يحاول في صدر شبابه إقناع أحد بالتسويق الشبكي والشجرات وما شابه في سبيل الوصول إلى الثراء السريع.

الرجل العادي، الذي لا يمتلك الجاذبية العالية والكاريزما، غير أنه لا يكذب، وربما لم يصل إلى مناصب عليا في مجال عمله، غير أنه لم يتملَّق الإدارة ولم يقم بالوشاية بزملائه، الرجل الذي لم يحقق إنجازات باهرة في الحياة عمومًا، غير أنه يعترف بأخطائه ويراجع نفسه ولا يرمي التهمة على الحظ والنصيب، الرجل الذي لا يميل إلى الدخول في مغامرات عاطفية بعد الزواج، ولا ينقلب على امرأته إذا رأى في الخارج امرأة جميلة، الذي لم يستطع للأسف أن يؤمِّن مستقبل أولاده مثل الأثرياء، غير أنه يرجو ذلك حتى آخر نفس من أنفاسه، ومن ناحية أخرى يضع نفقة أولاده في المقدمة ولا يبخل عليهم بما يستطيع، هو الرجل الذي يحاول أن يسعد أسرته بالمتاح، ويطعم أبناءه وزوجته من الحلال، ولا يوجد أحد قد صنع له عقدة، ولا يريد أن يغيظ أحدًا لا من جيرته ولا من أقاربه، ويتمنى للناس السلامة، وكل ما يرغب فيه من زوجته هو أن تكون مريحة له، وكل ما يحرص عليه أن يكون مريحًا لها، الرجل العادي الذي جعل سمعته تسمح لأبنائه وبناته بحياة طيبة، فلا أحد يرفض ابنته ولا ابنه للزواج بسبب سوء سمعة الوالد؛ وهو في الحقيقة رجل غير عادي، يستحق أن تقول له زوجته: أنا رأيت فيك الذي لم يره أحد، رأيت البطل الذي فيك.

هذا الرجل، وهو يمثل شريحة واسعة من الناس، هو به ظمأ في أعماقه إلى نظرة مثل نظرة الجدات، لأنه ربما في بعض الحالات المؤسفة لم يشعر قط، ولا حتى في ألعاب الطفولة، أنه يملأ عين أحد جدًّا، ربما وجد من يستلطفونه نوعًا ما، لكن لم يجد من يتمسَّك به، لكن زوجته تستطيع أن تفعل ذلك، ليس بنظرها إلى ما فعل بالمقارنة بما فعل الآخرون، فهذا هو مقتل كثير من الرجال، بل بنظرها إلى ما فعل من أجلها.

وسواء كان الزوج من هذا النوع الذي لم يجرب البطولة الظاهرة، ولم يقلب الدنيا من أجل رفع شكوى سواء عند حماية المستهلك أو غيرها، والذي عاش مسالمًا قدر الإمكان، أو لم يكن على هذا القدر من المسالمة، فإن الكتاب يهتم بأن تعتني الزوجة ببطولة الرجل المغروسة فيه، وتنميها، وتعتز بها، وتساعده على أن يحولها إلى قوة خيِّرة إن كانت ظاهرة فيه تلك البطولة بشكل فيه شطط.

على المرأة أن تعمل جاهدة من أجل هذا البطل في زوجها، لأن ما تنفيه المرأة قد يكتوي الرجل ويدوخ ويلف حول نفسه، كي يجمع الإثباتات عليه من الآخرين، على المرأة أن تعمل جاهدة كي

يسر زوجها بالرجل الطيب المعتدل فيه، بالبطل الذي فيه، لأن المرأة لو تذمرت وأنكرت، يمكن أن تحول قصة الرجل إلى قصة مأساوية.

بجانب المرأة التي تشكر الزوج على الكسب الحلال القليل، وتذكره بالآخرة، أي وجدت البطل الذي فيه واحترمته وآمنت به وأعلنت رضاءها عنه، وجعلت زوجها يراه هذا البطل ويرضى عن نفسه بوجوده فيه، فيثبت على ما هو فيه بقلب مطمئن، ولا تأكل فؤاده الفتن، هناك امرأة أخرى تسخط على زوجها وتسخر وتحرضه على مسابقة الناس فيما يكتسبون ولو بأي وسيلة، فيشعر أنه لا بطل فيه، وأنه تافه من كثرة اللوم والإغاظة، فيتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى إنسان لا يبالي من أين اكتسب ماله، فيطعم أهله من المال الحرام، ويفرح بترحيبها به وابتسامتها العريضة في وجهه التي كان محرومًا منها، عندما يعود إليها بالمال ويعدَّانه معًا، وينويان الذهاب إلى البنك في الصباح من أجل إيداع المال بعد حياة عائلية طويلة من الدخل الذي يكفي بالكاد لإكمال الشهر.

بجانب المرأة التي تعتز بزوجها العصامي الذي جاء من أصول بسيطة واستطاع بجديته وذكائه وطموحه أن يصنع لنفسه وضعًا ماليًّا واجتماعيًّا جيدًا، أي وجدت البطل الذي فيه، وجعلت زوجها يراه هذا البطل ويرضى عن نفسه بوجوده فيه ولا يتخبط مثل بعض الصاعدين اجتماعيًّا، هناك امرأة أخرى، توجِّه مثل هذا الرجل بأن يخرج من جلده تمامًا، ويساير الروح العصرية، وتجعله يشعر بأن كل ما تعلمه في الحياة هو قليل ومتواضع ما دام أنه لا يعرف أسماء الوجبات المتميزة وأنواع الجاتوه والمشروبات الراقية ولا يحشر الكلمات الإنجليزية في كلامه، وما دام يتعامل مع الآخرين ببساطة ومباشرة دون أن يشعرهم أنهم يقفون أمام رجل مميز. وتلمح له بأن قريته التي خرج منها لم تعد تناسبه، وأن أولاده ليس من المناسب أن يذهبوا إلى هذا المكان الأغبر ولا حتَّى أن يأتوا على ذكره مع أصدقائهم في المدرسة الدولية، وتجعله يقطع رحمه تقريبًا؛ وهذا الرجل الذي كان ينهر أخته في شبابه إذا خرجت بما يظهر ما فوق كعبها، وإذا ارتفع صوتها قليلًا في الطريق وهي تمشي مع صاحباتها، صارت زوجته تخرج معه بفستان سهرة مكشوف، وعطر أنثوي مثير، وقد صار يشعر أن غيرته الأولى كانت قلة نضج ومرضًا من أمراض البيئة البسيطة.

بجانب المرأة التي تسعد بأن زوجها محبوب في الحي ولا عداوة بينه وبين أحد، وكل الرجال يردون عليه التحية بحب واحترام، أي وجدت البطل الذي فيه وقدَّرته، وجعلت زوجها يراه هذا البطل ويرضى عن نفسه بوجوده فيه، فتقبَّل طريقة حياته ولم يتمرد على سلوكه الحسن، هناك امرأة أخرى، كأم أحد رفقاء كرة القدم في الصبا من حي شعبي قريب، كانت شديدة وعدوانية وسليطة اللسان، تعشق المشاجرات، وتتأهب لها بالتجهيزات التي يعدها الفتوات والبلطجية؛ وكانت تسخر من زوجها لأنه هادئ ولين الجانب ودمث، وتتعجب من حظها الذي أوقعها في رجل ضعيف مثله، ولم يكن هناك أي تناسب بينهما في الحقيقة. ومن شدَّة معايرتها له، وقولها له إنه ليس رجلًا أبدًا كهؤلاء الرجال الآخرين، الذين يتصدون للمعارك ولا يهابون أحدًا، شعر الرجل بأنه لا بطل فيه، وأن كلام الناس عن أدبه لا قيمة له، وشعر أنه تافه، لذلك خرج في إحدى مشاجراتها بعصا في يده، كي يرتاح من وابل استهانتها به، وهو لا يعرف ما الذي عليه القيام به، ولا يدري أي شيء عن فنون القتال ومكره، وسرعان ما سقط قتيلًا وهو لم يحمل في قلبه أي حقد تجاه ذلك الرجل الغاضب الذي قتله، ولكنه خرج ولوَّح بالعصا أمام بيته، فكان ضحية نفي زوجته لرجولته.

نعم، يمكن للرجل مهما بلغ عقله، ومهما بلغت قوة إرادته، أن تغلبه على نفسه امرأته، إن أحبها أو أحب رضاها، مهما كانت تبدو للآخرين سطحية، نعم، يمكن للرجل مهما بلغت سعة أفقه، ومهما تعددت خبراته وتجاربه، أن تحيط به زوجته، وتضيِّق عالمه، وتكون الأشد تأثيرًا عليه، مهما كانت تبدو للآخرين محدودة.

البطل الذي يوفر الشعور بالأمان

نعود إلى البطولة: ولو شئت أن أبسِّط الكلام عن تلك البطولة التي يشعر بها الرجل أو لديه حاجة مغروسة فيه للشعور بها لقلت أن يؤمن بأنه غير مهزوز، ويُعتمد عليه ويُحتمى به وتوضع عليه الثقة، أن يطيب له أن يوفر الشعور بالأمان لمن معه، أن يجد لديه رغبة ملحة في ذلك، أن يؤمن بأنه يمكن أن يقود عربة الحياة ويشاهد غفوة الآخرين فيها من زوجة وأولاد بسبب اطمئنانهم لقيادته؛ وهذا القائد، قائد العربة، هو يحاول أن يكون جاهزًا للتعامل مع أكبر قدر من المفاجآت بكفاءة مقبولة وسرعة جيدة، من أجل أن يعود إلى أفراد أسرته الشعور بالأمان والاستقرار؛ هذا ما يمكن أن أبسِّط به زخمًا من الأفكار حول هذا المعنى الذي ينشده الرجل، أي رجل، أو يتحسر في قرارة نفسه عليه، أو تحث المرأة رجلها وتدق على صدره، كي يخرج منه هذا المعنى ويمتلك روح هذا البطل، البطل الذي يوفر الشعور بالأمان.

البطولة التي في الرجل هي ذلك القبس المودع فيه، في فطرته، الذي يمنحه الشجاعة كي يغادر الجحر ويتناسى فترة الطفولة التي كان له فيها أن يتمتع بالحماية، ويصطنع لنفسه حياة غير محدودة، ويجرب الاحتمالات، ويعاند المعوقات، ويرمي قفاز التحدي في وجه الظروف إن لزم الأمر، ويثبت وجوده، ومن ضمن عوائد هذه الحرارة النبيلة التي فيه أن يوفر من الأمان ما يفيض به على أهله، كأحد أعظم تجليات رجولته، وأكثرها أهمية.

وهذه البطولة قد تكون ظاهرة جدًّا على الرجل ناطقة على قسماته وتصرفاته بسبب الاستعداد الشخصي والظروف المحيطة ومستوى القبول الذي حظي به ومستوى التوفيق الذي صاحب مسيرته، كهؤلاء الأبطال المعاصرين الذين تكلمنا عنهم من المشاهير والأثرياء وأصحاب النفوذ والسلطة والنجوم في مجالهم، ورغم ذلك فإن الحياة تعج بمن فيهم تلك البطولة التي تكون في الإنسان الشهم النبيل الذي لا يمتلك الظروف الكاملة التي تسمح له بأن يعبر عن كل ما يجيش بصدره من صدق وكرم وشجاعة وشعور بالمسؤولية، لذا فإن بطولته لا تخرج كلها للعالم من حوله، لكن يحاول على أي حال أن يوفر قدرًا من الأمان لمن هم تحت جناحه، ويحاول أن يحمي نفسه وأهله من الضيم، في الحدود التي تسمح بها الظروف؛ وعلى العكس من هذا وذاك قد لا تكون البطولة ظاهرة بأي درجة يمكن رصدها، تكون مجرد وخزة في العمق يشعر بها الرجل، قد تكون مجرد شيء يتهرب من الشعور بالحرمان منه؛ وبين الظهور الساطع والخفوت الشديد درجات من البطولة، التي هي في النهاية حصيلة الشخصية

والظروف والتجارب، ولا أتكلم هنا عن البطولة التي يتمناها المرء، بل البطولة التي يلمسها الآخرون فيه ومنهم الزوجة، وما نيل البطولة بالتمني.

وربما يكون الرجل هو بنفسه قد أضر بهذا البطل الذي به بسبب تركيبته أو ظروف تنشئته أو بسبب تجارب الحياة التي جلَدته، ورأى ألا يواجه الحياة بصدر مفتوح، وألا يجرب نفسه، وألا يتمرد أي تمرد، أضر بهذا البطل وجعله يضمر، ولا ينتعش فيه إلا في لحظات قليلة، أو لا ينتعش أبدًا؛ وبعضهم قد تعرَّض فيه هذا البطل للقتل بمعنى الكلمة، حتَّى إنه لا يستطيع أن يعيش إلا عالة تمامًا من الناحية النفسية، وهذا النوع الأخير من الرجال هو معاناة للمرأة التي لم تكن ترغب في رجل يبالغ في الاعتماد عليها، وتريد أن تأخذ حصتها من الأمان من زوجها، وهذا حقها مهما كانت قوية. وهذا النوع من الرجال ربما لا يلحظ أنه يسبب المعاناة، وهو يظن أن المرأة تعاني من جفاء الرجل وتسلطه فقط، ولا يعرف ولا يريد أن يقتنع بأن المرأة تعاني أحيانًا من لين الرجل وانعدام ميله إلى اقتحام أي شيء ومن انكفائه على نفسه ومن تواريه عن العالم ومن طبيعته المستأنسة ربما أكثر من معاناتها مع رجل فيه حدة أو رجل يحب أن يفرض رأيه بلا نقاش.

بالطبع فإن قضية وجود البطل أو ضموره داخل الرجل هي قضية الرجل نفسه قبل أي إنسان، وهو الذي يليق به أن يواجه بها نفسه قبل أن يواجهه بها أحد، ومع ذلك، يجب أن نعترف بكل تواضع، بأن المرأة تستطيع أن تتدخل بشكل مؤسف أو ملهِم في أمر بطولة زوجها، تستطيع أن تقطع عن البطل الظاهر في زوجها تلك الموارد التي يتغذى عليها وتجعله بعد مدَّة من الزواج ذكرى يتهرب منها الرجل أو يبتسم لها؛ وفي المقابل هي تستطيع أن تزيد البطل الظاهر في الرجل انتعاشًا، وتستطيع أن تنعش البطل الذي ذبل داخل الرجل، وتجعله يصدق نفسه، ويحب وجوده، ويجرب حظوظه، وتستطيع أن تفتش في الرجل عن البطل الذي فيه الذي لم يكن يعلم هو نفسه بحقيقة وجوده المخبوء، وتجده، فيسعد الرجل بها وباكتشافها لبطولته؛ لكن الأمر يتطلب أن يرغب الرجل في مساعدة نفسه، وأن لا يعيش متصالحًا مع عجزه الاختياري، وألا يراهن على أن المرأة الأصيلة تتحمَّل، فالأفضل للرجل أن يتنزه عن أن يبني حساباته على أن يكون شخصًا يتحمَّله الآخرون على ما فيه، هذا مع أي إنسان، حتَّى مع أمه نفسها.

والحقيقة وعلى عكس ما تظن بعض النساء، فإن المرأة هي ربما أكثر استفادة من الرجل بظهور وتوهج البطل الذي فيه، البطولة التي تناسبه بالطبع وتناسب مقوماته في غير انعزال عن الواقع؛ لأنها تبحث في الرجل عن الأمان، وتبحث فيه عن العزيمة التي تكون عند رجل يمكن أن يواجه العالم كله من أجل أسرته، أو لنقل إنها تبحث في الرجل عن رجل حقيقي.

يمكن أن يكون الرجل الذي مات البطل فيه رجلًا مريحًا للمرأة، يسمح لها بقدر ظاهر من النفوذ ومن المرونة، لكن ستظل في أعماقها تشعر بأنها كانت ترغب في رجل تختبئ به وتستند عليه ويظهر عليه الثقة بنفسه، حتَّى لو كانت قوية بما يكفي لتختبئ في نفسها، هذا هو ما يجب أن يفهمه الرجل وتفهمه المرأة، وهو أن الرجل يجب أن يوفر لزوجته الشعور بالأمان، ذلك الأمان الذي لا يشبه الأمان الذي يوفره الإنسان لنفسه عندما يكفيه ماله ويكفيه عقله، بل هو الأمان الذي يحتاج إلى أن يمده به رفيق حياته.

هناك نوع من النساء لم تفكر الواحدة منهن قط في إيذاء هذا البطل الذي في الزوج، بل حرسته وأطعمته وأكرمته، أو على الأقل تركته وشأنه، لكن بعض النساء على النقيض من ذلك عملن بإرادة لا تلين على قتل البطل الذي بالزوج، سواء كان القتل سريعًا أو بطيئًا، من أجل أن يشعرن بالزعامة والسيطرة، أو بسبب شعورهن بأنهن مؤهلات أكثر من الأزواج لتولي المسؤولية، ومنهن من فعلت ذلك دون تعمد ولكن كنتيجة لارتطام شخصيتين مختلفتين، وشعورها القوي بأنها يجب أن تهتم بكل شيء، وأن عالمها سينهار لو استرخت.

وعندما حدث ذلك في نهاية الأمر، عندما تعرض البطل الذي بالزوج للضمور أو القتل، صرن يعشن بنوبات من الألم الدفين كلما وجدن امرأة بجانبها زوج قوي له حضور واضح وكلمة نافذة وهيبة مفروضة، لأنهن أخذن من الأزواج الكلمة، صارت الكلمة كلمتهن، لكنهن لم يأخذن من الأزواج الضعفاء ما هو أهم من ذلك وهو الأمان، الأمان الذي تأخذه المرأة من رجلها لا الذي تمنحه لنفسها.

عندما حدث ذلك في نهاية الأمر، عندما تعرض البطل الذي بالزوج للضمور أو القتل، صرن يضعن الزوج الذي قضين على بطولته أو شاركن في ذلك، في مقارنة بزوج آخر يبدو موفور البطولة ويصدق نفسه، صرن يضعن الزوج الذي يخاف كي يسلم، في مقارنة بزوج آخر يفتح صدره في مواجهة الحياة، صرن يضعن الزوج الذي يبهت في مجلس الرجال في مقارنة بزوج

آخر تتوجه الأنظار إليه، صرن يضعن الرجل الذي لا يستطيع وحده الدخول في جمعية مع الأقارب والجيران في مقارنة بزوج آخر يتاجر ويصدر الشيكات ويتخذ قرارات استثمارية شجاعة بأعصاب هادئة.

هناك ما تستطيع المرأة فعله كي تمنع هذا التدهور من الاستمرار، وبخاصة في فترة مبكرة، هذا كله يمكن إيقافه قبل الشعور بالندم: في أثناء تبدل المشاعر الذي يحدث للمرأة بعد الزواج، عندما تتعرف على زوجها من كثب، ويقل تأثير الشوق والانبهار والخيالات السعيدة والأمنيات الزاهرة، يجب أن تراقب دفتها التي بدأت تتحرَّك شيئًا فشيئًا باتجاه تفكيك سلطة الرجل وفرض واقع يحوِّل رجولته إلى حالة فخرية، يجب أن تراقب الضربات المدروسة، والهادئة، والموجهة بعمد وإصرار، التي تجد نفسها تقوم بها تجاه نزعة البطولة في الزوج، أن تراقب الميل إلى التمادي الذي عندها، حتَّى تضع لنفسها آخر حد لفرض مساحة جيدة لنفسها؛ لأن كثيرًا من النساء وقعن تحت تأثير هذا الميل إلى التمادي، فأخذن مساحة كبيرة لدرجة أنهن فجعن بها بعد فترة، وكان يمكن بضبط النفس وتحديد الخط، أن تتوقف الأمور عند حد لا بأس به؛ نعم يمكن للمرأة في أعماقها التي لا ينظر فيها أحد أن تفجع ممَّا وصلت إليه الأمور من ميل إلى صالحها في علاقتها بالرجل، لأن المرأة يمكن أن تكون ضحية عزيمتها القوية، وليست ضحية شيء آخر، هذا إذا استخدمت عزيمتها القوية في غير محلها.

الأمان له بطاقة تعريف يضعها على صدره، الكل يعرفه، فالعيش في شقة تمليك أفضل من العيش في شقة إيجار، ودخل مستقر أفضل من يوم نعم ويوم لا، وأن يكون الرجل صاحب سيرة ذاتية يضمن معها أن يجد عدة فرص عمل بديلة، أفضل من أن يكون الرجل مضطرًّا إلى الحفاظ على مقعده في الشركة لأنه لا يمتلك ميزة تجعله مطلوبًا بدرجة تثير الطمأنينة؛ وليس الأمان في المال فقط، الأمان أيضًا في العقلية والتوجهات والتركيبة ومستوى الانتباه، فرجل عندما يعرض عليه الآخرون فكرة لتوظيف المال لا ينخدع بالابتسامات، ويطلب الأوراق، ويسأل عن الضمانات، أو عندما يسمع بفكرة ما معروضة يوقن بأنها مجرد عملية نصب لا تنطلي على مثله، رجل كهذا أفضل ممَّن يمكن خداعه ويصدق أغلب ما يقال له ويتبع الأمنيات، والأمان أيضًا في الطباع الشخصية، فرجل لا يشعر بأي حرج من أن يسأل معظم من يعرفهم عن فرصة عمل إذا احتاج إلى ذلك، أفضل من رجل خجول ينزوي ولا يحاول أن يعبر عن احتياجاته

وينتظر من الآخرين أن يلقوا له بأطواق النجاة من تلقاء أنفسهم بعد أن تتحطم تفاصيل حياته.

والحقيقة أن هذا أغلب الأمان المطلوب من الرجل، ويختلف حظ الرجال فيه؛ وسيكون الرجل الذي امتلك كل هذ الأسباب السابقة من مال وعقلية وشخصية وخلافه، معفى من كفاح رجل آخر أقل حظًّا من ناحية القدرة على إقناع الزوجة وإضفاء الشعور بالأمان، هذا مؤلم للبعض، ولكن يجب أن يكون واضحًا لهم بغير تزويق.

ولكن هذا الذي سبق ليس كل الأمان، كما أن حمل السلاح داخل البيت أمام الزوجة ليس هو كل البطولة، فحتى إذا كانت المرأة صاحبة مال وعقل وشخصية، وامتلكت أغلب أسباب القوة والاعتماد على النفس، فإن بها حاجة إلى رجل يعطيها الأمان، وإن الرجل أيضًا يحتاج إلى ذلك من المرأة، لأن الأمان درجات، وليس الأمان فقط أن يجد الإنسان ما يكفي نفقات معيشته وإن كان هذا ضروريًّا جدًّا، فهناك أمان نفسي ضروري أيضًا يحتاج إليه الإنسان من شخص لصيق به في هذا الدنيا تسكن نفسه معه، الأمان الذي يتوفر لإنسان عندما يكون بجانبه آخر يعملان معًا من أجل آمال واحدة، ويدافعان عن بعضهما بعضًا إذا تعرض أحدهما للنقد والهجوم، ويكتمان أسرار بعضهما بعضًا، ويغار كل منهما على الآخر، وينكشف كل منهما للآخر تمامًا جسدًا ونفسًا.

وأحب أن أقول في نقطة الأمان هذه، وهذا للتفريق بين العجز الذي حتَّمته الظروف وبين العجز الاختياري والكسل، أقول إن المرأة أحيانًا ما تشعر بهذا الأمان المرغوب مع رجل لا حول له ولا قوة، تشعر بالأمان مع رجل ضعيف أو قعيد، تشعر بالأمان مع رجل لا يقدر على أي مواجهة من أي نوع، بل قد تشعر بالأمان مع رجل غائب عن الوجود منذ سنوات في المستشفى وأخبرها الأطباء بكل أسف بالضعف الشديد للأمل، وهم يقصدون أنه لا يوجد أمل البتة، لكنها لا تريده أن يموت، ليس بدافع الشفقة عليه فقط، ولكن وجوده ولو على هذه الحالة الصعبة يعطيها أمانًا غير مفهوم لمن حولها بل هو غير مفهوم لها هي نفسها؛ لأن جزءًا من شعور المرأة بالأمان الذي يحدث بوجود رجلها الذي تحبه وتقدره في حياتها، هو غير قابل للتفسير البشري البسيط على أرضية قدرته على التنازع مع الآخرين من أجلها وعلى أرضية مواهبه في السعي، إنما وجود الرجل الحقيقي في حد ذاته أمان، أمان يصعب تفسيره إلا على أنه شعور عجيب

يودعه الله في قلبها، فهي تشعر بالأمان لمجرد وجوده على قيد الحياة، لمجرد وجوده أمامها ولو مغمض العينين، وهذا واحد من أعظم دلائل الحب التي رأيتها بنفسي في مستشفى، نعم، رأيت!

الأمان ينبع أحيانًا من شعور الإنسان بأنه يطيع الله في غيره، ويؤدي ما عليه على قدر استطاعته، كذلك الشعور بالأمان الذي عند من يكفل يتيمًا، أو من يبر بوالديه الطاعنين في السن ويحتمي برضاهما عنه، أو ذلك الذي قاله لي شاب محظوظ وناجح، ومتفائل، وشجاع في اتخاذ القرارات المصيرية ذات يوم، عندما قال لي إنه يؤمن بأن الله ينفعه ويفتح له الأبواب لأنه يكرم أبواه ومتكفل برعاية أخيه الشاب الأكبر منه سنًّا القعيد الذي لا يعيي من أمر نفسه شيئًا.

ومثل هذا تشعر به امرأة لأنها تتقي الله في زوجها ويتقي الله فيها، ولأنها تحبه، وتطلب رضاه، وتخلص له كل الإخلاص، ذلك الأمان الأصيل الذي هو من عند الله، الذي يشعر به الإنسان مثل البشرى، مثل السكينة، مثل تثبيت الفؤاد، وهو في النهاية أعلى من الأمان الذي يتوفر للمرأة عندما تشعر أنها مسكت بمقاليد الأمور، وتحكمت في البيت، فهذا أمان امرأة متروكة لتدبيرها، وقد يفلح تدبيرها وقد لا يفلح.

وكما قلت إن الرجل يجب عليه ألا يراهن على أن المرأة الأصيلة تتحمَّل، وإن الأفضل له أن يتنزه عن أن يبني حساباته على أن يكون شخصًا يتحمَّله الآخرون على ما فيه، هذا مع أي إنسان، حتَّى مع أمه نفسها، كما قلت هذا، أقول إن المرأة يجب أن تفرق بين رجلها الذي رأت منه الخير والتدليل وكان يفضلها على نفسه، وكان يحاول إلا يرفض لها طلبًا، ولكن جعلته الأيام يرى ما لم يكن يتوقَّع وتبدلت أحواله، وتعسرت معيشته، وبين الرجال الأنانيين المتواكلين المتبلدين، فهو ليس منهم، أبدًا هو ليس منهم، ولكنه الابتلاء، فإذا امتحنها الله في شعورها بالأمان بسبب هروب أسباب الدنيا منهما، اتقت الله في زوجها في ابتلائه وأرضت ربها فيه، أملًا في أن يودع قلبها ذلك الأمان الذي من عنده الذي يسكنه قلوب عباده المخلصين، ذلك الأمان الذي تكلمت عنه من قبل، ذلك الأمان الذي لا يمكن إنتاجه على الأرض.

وكذلك على المرأة التفرقة بين رجلها الذي يعيبه قدر من الحساسية أو الانطواء أو التشاؤم أو الخوف من الأيام أو قلة الثقة بالنفس أو نالت منه التجارب المؤلمة، إذا كان يعز عليه أن ترى زوجته عيوبه، وهو يحاول أن يعالج ذاته ممَّا بها، وبين الرجال اللا مبالين والكسالى وفاقدي الشعور بالمسؤولية، فهو ليس منهم، أبدًا ليس منهم، ولكن كل منَّا تضع الأقدار على ظهره

حمولةً ليرى الله ماذا يصنع عباده، ومن ضمن الحمولة ما يؤلمنا من شريك غلبت عليه الطيبة والصلاح، فالأفضل لها أن ترعى بطولته، وتحتسب الأجر في انتشال هذه البطولة التي سقط عليها ركام الحياة.

البطل الذي تعمل زوجته على إرضائه

كثير من النساء الطيبات في الحقيقة يتقبلن فكرة أن على الواحدة منهن أن تسعى قدر جهدها إلى إرضاء زوجها، وتحسين شعوره بالتنعم في الحياة الزوجية في الحدود التي تسمح بها ظروف الأسرة، ويتناسين في سبيل ذلك بعض الموجعات التي في الحياة الزوجية، وبعض متاعب العيش التي تهد النفوس، في كل مكان هؤلاء، يمكن أن تكون أصواتهن غير عالية جدًّا في المحفل النسوي، ولكنهن يعشن هذا المعنى، معنى الإرضاء في تفاصيل الحياة الزوجية.

وفي المقابل، هناك نوع من النساء يمكن أن تتكلَّم الواحدة منهن بكل يسر عن استهداف السعادة الزوجية والتفاهم والتعاون بينها وبين زوجها، لكن ذاتها المشحونة بالاعتزاز بالنفس وبالندية تجعلها ترفض الاعتراف بأن إرضاء الزوج هو (مستهدف) لها يجب عليها أن تسعى بهمتها إلى تحقيقه، وترفض تمامًا أن تجعل هذا الإرضاء لافتة عالية ظاهرة في عموم حياتها، ولن تقبله بعد جدال إلا باعتباره جزءًا من صيغة عملية متوازنة تمامًا، أو عُملةً لديها يمكن أن تدخل بها في مقايضة مع الزوج: أرضيه ويرضيني؛ لكن أن يكون هذا الإرضاء معنى هائلًا مهيمنًا فكلًّا وألف كلًّا.

وبطبيعة الحال، وبالرغم من التحسس من الدخول في نوايا الناس، فإنه يمكن لمن يسمع هذا من امرأة ترفض أن تجعل إرضاء الزوج علامة كبرى في حياتها، يمكن أن يستنتج أنها لن تشعر بكثير من الرضا والارتياح تجاه الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد أهمية إرضاء الزوج وأهمية طاعته، وأنه سبب في دخول الزوجة الجنة، ولكن الورع بالتأكيد سيمنعها من التعبير عن الضيق والحرج من هذه الأحاديث الواضحة المعاني، ويجعلها تستمع حتَّى ينتهي من ذكر الحديث أمامها وقد كانت تتمنى ألا تسمع ما سمعت، ومنها هذا الحديث: (إذا صلَّت المرأة خمسَها، وصامت شهرها، وحفِظت فرجها، وأطاعتْ زوجها -دخلتْ جنَّةَ ربِّها)، وهذا الحديث: **(أيَّما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة)**.

وهذه المرأة التي لا يريحها الكلام المباشر عن ضرورة إرضاء الزوج في غير معصية الله، تتكلَّم بسعة صدر وتستمع للأحاديث بقلب يكاد ينفطر من الحنان، عندما يكون الحوار عن إرضاء أمها وإرضاء أبيها، ولا تجد في نفسها أي غصة حتَّى لو كان لديها بعض الملاحظات على الوالد أو الوالدة في فترة تنشئتها في البيت، كتلك الملاحظات التي تكون عند البنين والبنات، لكن هذه الغصة تكون موجودة فيها عند الكلام عن إرضاء الزوج، إذ أول ما يتبادر إلى ذهنها وقتها هي

الأشياء التي تضايقها منه، رغم أن طاعة الزوج مقدمة على طاعة الوالدين، وهو جدير مثل الأبوين بالتغاضي عن الملاحظات المعقولة عنه، فقد سألت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أعظم حقًّا على المرأة؟ قال : زوجها. قلت: فأي الناس أعظم حقًّا على الرجل؟ قال: أمه.

كل النساء تحب الواحدة منهن أن تقول باعتزاز وافتخار إن الأب قد مات وهو راض عنها، أو الأم، وترى في هذا الرضا سببًا وجيهًا لما تعيشه من استقرار؛ والسعي الحثيث في طلب رضا الأب أو الأم، ثمَّ الاعتزاز برضا هذا الأب الذي مات أو الأم، لا يشعرها بأي دونية أو هشاشة أو نقص في القدر، بل هذا الاعتزاز مغموس في الرحمة والولاء تمامًا، ولكن ليس كل النساء قادرات على فهم أن رضا الزوج عنها الذي يحيا به وسيموت به هو لا يقل في الأهمية عن رضا الأبوين، بل يزيد، وليس كلهن يستطعن إن مات الزوج أن يتكلَّمن أمام الناس عن رضاه عنها الذي مات به بذلك الاعتزاز المغموس في الرحمة والولاء.

الذي لا يريد أن يقبل شيئًا سيستطيع أن يجد المبررات لعدم تقبله، وخصوصًا إذا نظر إليه باعتباره شبيهًا بسوار إلكتروني يحيط بمعصمه يراقب مساره، سيقول لسان حال السيدة: حسنًا؛ أنا لن أقبل هذا السوار، سوار إرضاء الزوج، ولو كان من ذهب، فهو مهين، فأنا لست تابعة له ولست خاضعة لهيمنته، وفهمي لعلاقة الزواج غير هذا تمامًا، لكن صيغة (أرضيه ويرضيني)، هذه تشبه أن نتختم بالدبلتين، هذا مقبول، أما السوار فلا، إنه ليس ذوقي.

الوسيلة الدفاعية الأفضل وقتها لعدم ارتداء هذا السوار، هي أنها تذكر لنفسها فضلها العظيم عليه، وتعبها فيه، وتنظيمها لفوضاه، والأشياء المحبطة فيه، التي تستطيع أن تجمعها من الذاكرة من هنا وهناك في ثوانٍ معدودة، شيء حدث بالأمس، وشيء حدث منذ عشر سنوات، وشيء حدث في فترة الخطوبة، وتستخلص من ذلك هذه الخلاصة: وأين هذا الرجل الذي يستحق أن أعمل على إرضائه؟ أين هو؟ ولماذا أخذ الزوج هذا الامتياز عليَّ؟ أو تضع الصيغة بشكل عام: وأين هذا الرجل الذي يستحق أن تعمل الزوجات على إرضائه؟ أين هؤلاء الرجال الجيدون المناضلون الذين آثروا أبناءهم وبناتهم وزوجاتهم على أنفسهم؟

هل رأيت البراعة؟ هل رأيت هذه القدرة؟ يمكن لبعض النساء أن ينفين وجود رجل جيد في هذه الأزمنة مقابل ألا يقال إن على المرأة أن تستهدف رضا الزوج.

ولا تتوقف المفارقة عند أنها تعترف بحب ودون أي ضغط ومن دون أي حسرة بضرورة أن ترضي أمها وأباها ولا تعترف بضرورة إرضاء الزوج، بل تمتد المفارقة حتَّى تصل إلى أنها لو كانت موظفة فإنها تعتبر أن سعيها الحثيث إلى إرضاء الإدارة وأصحاب العمل هو شيء طبيعي جدًّا، بل تكون في قمة ابتهاجها وهي تعبر عن مدى الرضا الذي تشعر به الإدارة تجاهها بسبب جهدها الواضح وكفاءتها النادرة، أيا ما كانت وسيلة التعبير عن هذا الرضا، نصف راتب شهر، شهادة تقدير، قطعة شوكولاتة، أو مجرد إيميل يرفع المعنويات، ستكون سعيدة بالطريقة التي عبرت الإدارة بها عن رضاها؛ وبالمناسبة فإن الزوج لو قدم لها هدية تعبر عن رضاه، فهي لن تحب أن تقول إن هذه الهدية هي تعبر عن رضاه، بل ستقول إنها تعبر عن ذوقه ورقيه، أو شدَّة تعلقه بها، أو تعبر عن اعتذاره، أو تعبر عن ضعفه أمام الأشياء التي تريدها، وكل هذا لا بأس به في الحقيقة، ليس من المشين للرجل أن يجلب هدية لزوجته لأنه يحبها جدًّا، أو بسبب أنه يهوى ما تهوى، أو بسبب أنه مهذب ولطيف ويعرف كيف يتعامل مع الأنثى، لكنها لن تحب أن تقول إنه جاء بالهدية المفاجئة لأنه (راضٍ عنها)، تلك هي المشكلة، إنها غير متقبلة لوضع الزوج في موضع يمنح منه الرضا أو يمنعه، هكذا بكل وضوح.

ولا تتوقف المفارقة عند أنها تعترف بحب ودون أي ضغط ومن دون أي حسرة بضرورة أن ترضي أمها وأباها، ولا تعترف بضرورة إرضاء الزوج، ولا تتوقف المفارقة عند أنها لو كانت موظفة فإنها تعتبر أن سعيها الحثيث إلى إرضاء الإدارة وأصحاب العمل هو شيء طبيعي جدًّا، بل إنها لو كانت تتبع نظامًا رياضيًّا وغذائيًّا مع مدرب أونلاين فهي تحاول إرضاءه وتستجيب لضغوطه، وتتحمَّل لفتات الصرامة منه، وتتجنب تمامًا أن يشعر بالإحباط منها، وتفتخر بأن الكابتن فلان مبسوط منها جدًّا، تقول هذا للسيدات في صالون البيت اللائي لاحظن انخفاض وزنها وتخلصها من بعض الشحوم والرشاقة التي تتحرَّك بها بينهن، ولكن من سابع المستحيلات أن تفتخر بأن زوجها راض عنها، وهذا له أسباب أخرى بخلاف الخوف من حسد النساء للنساء، وهو أنه قد جرى تسميم حياة الإناث بأن السعي إلى إرضاء الزوج والفرح برضاه هو من علامات الهوان وقلة القيمة، ومن سمَّم حياة الإناث أغلبهم من الإناث، من باب الغيرة على بنات جنسهن، والحقيقة أن من يغار على الإناث حقًّا هو من يرجو لهن رضا الله ويرضى لهن الجنة.

إذن البطل معروف، البطل هو ذلك الذي تفهم زوجته أهمية أن تعمل على إرضائه، تعمل على إرضائه برضا نفس، وهي محصنة بقدر واضح ضد تأليب المجتمع النسائي لها على زوجها، وولاؤها لزوجها أقوى من الأفكار السائدة التي تندلع كل حين من أجل إضعاف ذلك الولاء.

أما من هو على العكس من ذلك تمامًا، فهو الرجل الذي تقول زوجته في نفسها: يرضيني ويرضيني، ثمَّ يرضيني، الرجل الذي نجحت زوجته في أن تجعله يشقى في إرضائها في كل ما يعمل، حتَّى إنه لا يفكر في الأساس في أن ترضيه ولا يحلم بذلك، يشقى ولا يصل إلى هذا الرضا من جانبها إلا في لحظات نادرة، ودائمًا ما يشعر أنها لم تصل لقمة الارتياح تجاهه إلا في شكل فلتات، ممَّا يجعله لا ييأس ما دام أنه يمكن أن ترضى ذات مرة في علم الغيب.

ولو كان كل ما في الأمر هو أنها زوجة تدرك حب زوجها وتحتاج إلى أن يعمل على أن يجعلها راضية فلا بأس، ولكن المشكلة عندما يكون من حظ الشاب المتزوج أن تكون امرأته أنانية ومظهرية ومتفاخرة، ومسمومة بخطاب قائم على امتصاص ما في روح الرجل الطيب إلى النهاية، وبلا حمد ولا شكر، وربَّت نفسها على مشاهدة رفاهيات الناس والتمعن فيها على الجوال والشاشة وأرض الواقع.

فذلك الرجل الطيب الذي تزوجته ويشقى في إرضائها، كان الزوج السيئ في زمن جده هو الذي يتشاجر مع زوجته لأن الطعام الذي وضعته أمامه طعام بايت، فكان من السهل جدًّا على جده أن يكون زوجًا جيدًا مرضيًا، بأن يكسر اللقمة ويأكل ممَّا وضعته زوجته أمامه.

ثم بعد هذا، كان الزوج السيئ في زمن أبيه وأعمامه، هو الذي لا يعزم أفراد أسرته على الأكل في مطعم من المطاعم أبدًا، فكان من السهل إلى حد ما على أبيه أن يكون زوجًا جيدًا مرضيًا، بأن يأخذ الأسرة إلى مطعم كباب وكفتة كل مدة، وهذه كانت نقلة نوعية يتوارى بها جيل الآباء عن الأجداد حتَّى لا يسخروا من نعومتهم.

ثم بعد هذا، صار الزوج السيئ في زمن زوجته هو، زمن الإنستاجرام والمسلسلات الرومانسية والمقاطع العاطفية للمرفهين، هو الذي يعزم أفراد أسرته على الطعام خارج البيت، لكنه لا يصنع المفاجآت بطريقة لطيفة، ولا يسحب الكرسي لزوجته كي تجلس، ولا يفاجئها بالبطاقات الرقيقة، ولا يعرف مطعمًا تتوفر فيه الشموع، أو مطعمًا له إطلالة بحرية تغرق الزبائن في

سحر اللازورد وعبق اليود، ولا يستطيع أن يكون شبيهًا بالرجال المرسومين في المسلسلات الرشيقة المكونة من ثلاثمائة حلقة.

سبحان الله، ما أشد الغربة، كان مطلوبًا من الرجال أن يتكرموا ويأكلوا الأكل البائت، ما أسهل اختبار الحياة هذا، وبعد نصف قرن أو أكثر قليلًا صار مطلوبًا من الأحفاد أن يقلدوا مستوى رفيعًا عجيبًا للرجل الذي صنعه الخيال الفني واستعراضات الأثرياء على الشبكة العنكبوتية.

إن بعض الرجال، وربما تزيد النسبة بطريقة مخيفة في الأجيال القادمة، صاروا يعيشون مع نساء شابات تغلغلت في نفوسهن تلك المشاهد الرائعة والمناظر الجميلة والقصص الناعمة، ونبتت فيهن معها تلك الرغبة في ذلك الرجل البطل المتفرغ الثري واسع القدرات الباهر، الذي وصل إلى سن النضج، ويجيد مغازلة المرأة ومحاصرتها عاطفيًّا، الذي أنتجته المقاطع والمسلسلات، وأنتجته من قبل مخيلة نزار قباني، وأحلام مستغانمي، الرجل الشهريار في نفسه، الذي يمكن أن يشتري كل تذاكر الحفلة كي يستمع وحده لمن أحبها إن كانت مغنية، والذي يرسل أغلى باقات الورد حيث ذهبت، ملك العطور والحرير والتفتا، والذي يمكن أن يكلِّف سكرتيره بقطع تذكرتين فجأة لأنه قرر أن يتناول وجبة العشاء معها في أرقى مطاعم باريس.

إن المشكلة تكمن في أن الشابة تنسى أن هذا الشخص هو شخص مصنوع فنيًّا، صنعته مخيلة أدبية أو مخيلة إنتاجية، ولا بأس من اعتباره من عالم الخيال مثل أبطال ألف ليلة وليلة، لا بأس من اعتباره تنهيدة النفوس، المشكلة هي في أنها تقيس به الرجل الحقيقي الذي معها، الذي هو مِن لحم ودم، ويعاني من ضغوط حياتية شديدة، وربما لا يشتري ملابسه إلا في فترة التخفيضات، فيكون من المحتم أنها لا ترضى ولن ترضى.

بالنسبة إلى الزوجة الصالحة، فإن هذا الأمر الذي نتكلم عنه، أمر إرضاء الزوج، هو أساسي ولا خلاف عليه، تدخل في تجربة الزواج وقد بيتت النية على أن ترضي زوجها وتتقي الله فيه وتجعله يحمد الله على أن وجدها في طريقه في الحياة؛ وهذا الإرضاء هو بوصلة تؤكد لها أنها تمشي في الطريق الصحيح، هي تسعى في إرضائه في غير معصية الله، وهي تحاول أن تعرف إن كان قد رضي بالفعل أم لا، ولا يهمها كثيرًا كيف يرى الآخرون من حولها عزيمتها المستقيمة في إرضاء الزوج؛ وهذا السعي إلى الإرضاء، وبخاصة مع زوج مقدر وسلس ومحتضِن، لا يمثل لها

أي ضغط نفسي، ولا يشعرها بأي قدر من التشوه النفسي، بل يبدو لها موافقًا لشيء مركوز في فطرتها السليمة.

وكان يمكن بسهولة أن أضع قائمة تضم بعض مظاهر الإرضاء التي يمكن أن تجتهد فيها الزوجة، ولكن غرض هذا الحديث الأهم ليس هو تفصيل طرق الإرضاء، حتَّى يتطرق الحديث مثلًا لمعدة الرجل كأقرب طريق إلى قلب الرجل وما شابه، وليس كل الرجال متفقين فيما يرضيهم، الغرض الأهم لهذا الحديث هو أن تتقبل المرأة الإرضاء نفسه والتفاصيل من بعد ذلك أمرها سهل، أن تجعل المرأة إرضاء الزوج محورًا في حياتها الزوجية، تدور حوله بلا ملل، وبلا تكلف في الوقت نفسه، فيصبغ طبعها الأنثوي ويزيدها أنوثة ورقة، أن لا تفهم الإرضاء على أنه سُخرة عاطفية، بل رؤية عاطفية نبيلة تناسب امرأة معتدلة الطباع ومعطاءة، فرفض الإرضاء، أي أن تؤمن المرأة بأنه ليس أمرًا تسعى إليه من الأساس، هو فيه من الشح أكثر ممَّا فيه من العزة، وهو فيه من عدم الوفاء أكثر ممَّا فيه من قوة الشخصية، وفيه من عدم الاحترام أكثر ممَّا فيه من الثقة بالنفس.

إذن لن أحدد هنا تعليمات محددة للإرضاء، مكتفيًا به كنفسية تتمتع بها الأنثى، تعيش بها من دون أن تكون ثقلًا عليها، هذا لأن الشعور القوي والأصيل والثابت بالرغبة في إرضاء الزوج سيقودها، نعم، الإرضاء سيعلمها، سيعلمها ماذا يمكن أن تفعل، سيصنع لها القائمة المناسبة.

وهذا الإرضاء سيزيل الكثير من آثار عيوبها، فلو كانت الزوجة الصالحة عصبية بعض الشيء، فإن تغلغل فكرة الإرضاء فيها، سيجعلها بعد أن خرجت عن شعورها تتقرب من زوجها وتتودد إليه وتعتذر له عن غلبة طبعها عليها، بينما المرأة العصبية التي لم تجعل الإرضاء محورًا لحياتها الزوجية، ستحاول أن تجعل الموضوع يمر بغير اعتذار، ومن خلال صبر زوجها واحتوائه، أو من خلال كلمات قليلة شحيحة هي أقل ممَّا يستحق الزوج؛ ممَّا يعني أن الإرضاء قادر على مسح كثير من آثار العيوب الشخصية، وبطبيعة الحال فإن شعور الرجل تجاه زوجة تجيد الاعتذار وإبداء الأسف إذا تسرعت بسبب حدتها، يختلف كثيرًا عن شعور الرجل تجاه زوجة تبدو وكأنها لا تعرف ولا تريد أن تعرف ما عليها فعله إذا أخطأت.

إذن إرضاء الزوج الذي يمكن النظر إليه باعتباره سوارًا يقيد المرأة نفسيًّا، هي يمكن أن تنظر إليه باعتباره قدرة إضافية عندها ليست عند المرأة التي لا تجعل من إرضاء الزوج هدفًا

عظيمًا، وهذا يمكن شرحه بمثل بسيط، فالزوجة التي لا تهتم بذلك الإرضاء، ولم تعوِّد نفسها عليه، يأتي على الزوج وقت خصومة ما، وليس بالضرورة أكبر خصومة، ويستخرج من ذاته وذاكرته وأيامه شريطًا بكل الأسى وكل المضايقات وكل الملاحظات الصغيرة والكبيرة، يجد كلَّ شيءٍ راكدٍ هناك، حتَّى الأشياء والمواقف التي كان قد نسيها، يجدها كلها عالقة؛ يشبه الأمر تلك الشبكة التي تكون خلف واجهة المكيف وعليها كل الأتربة، التي نفاجأ بمنظرها المتسخ عندما نستخرجها، كل آثار مضايقات المرأة لزوجها يمكن أن تكون حاضرة أمام وجه الرجل، لأنها لم تعتمد على قدرة الإرضاء على الغسل والتنظيف، أولا بأول.

مع امرأة كانت تستهدف رضا الزوج، وصار الإرضاء أسلوبًا سلسًا ظريفًا لها لا تتعب فيه، في أي وقت خصومة ستكون الشبكة أنظف من ذلك كثيرًا عندما يستخرجها الرجل لينظر فيها. بقي أن أقول إنني أظن أنه لا أحد صحيح الطباع يمكن أن يقول إنه لا يفهم ذلك أو يقول إنه يراه عسيرًا جدًّا أو يراه متكلفًا يفقد الحياة تلقائيتها، لأننا نفعل ذلك في الحقيقة بسلاسة وتلقائية مع أعز الأصدقاء من دون جدول تعليمات، ولكن بدوافع عاطفية قوية، نحاول أن نرضيهم، نحاول أن نحجِّم أي خلاف، نحاول أن نشرح ما هو جدير بالشرح، نحاول أن نثبت لهم قدرهم عندنا، خوفًا من أن تأتي لحظة ونفقدهم إلى الأبد أو يقل رصيدنا عندهم ونصبح من جملة المعارف؛ كل الحكاية أننا يجب أن نفهم أن شريك الحياة يستحق بالفعل ذلك ولو كان بقاؤه مضمونًا نوعًا ما غير حال الأصدقاء.

هذا حديث مجمل عن الإرضاء وجدت أن التفصيل فيه قد يشتت الذهن عن المعنى الأساسي، أو قد يدفع الزوجة تحت ضغط اعتزازها بنفسها إلى التهرب من الشعور الطيب الراسخ إلى مجرد مجموعة من الإجراءات والمهام، لأن هناك نوعًا من النساء أيسر للواحدة منهن أن تعمل ورديتين على سيارة أجرة ولا أن تلين لزوجها وتضع نفسها تحت جناحه؛ وفي العموم، أنا أتحدث إلى الزوجة عن السعي إلى الإرضاء كقوة نشطة فيها، وهي يمكن أن تترجم تلك القوة حسب طباعها وحسب احتياجات الزوج وميوله.

والمرأة لا تحتاج إلى من يعطيها الكثير من الوصايا عما يمكن أن تفعله إذا أحبت واعتنت، فالمرأة هي العناية، وهي أن أحبت صار يسرُّها كثيرًا أن ترى تلذذ الإنسان الذي معها بما قدمته له، وهي إن لم تعتنِ فهذا نصف تصريح منها بأنها لا تحب؛ والمرأة إن أحبت جدًّا واستبد بها

الحنان، فإنها ترضي الذي أحبته وشعرت بالحنان تجاهه، ولو كان قطًّا تربيه، يمكن أن تنزل به من البيت على الرغم منها إذا شعرت أنه ملَّ من المكوث في البيت، تنزل به كي ترضيه ويعتدل مزاجه.

هذه هي المرأة، هي العناية، ومن الصعب أن يجاريها رجل في العناية، أما الرجل الذكي الصالح فهو في المقابل يستطيع أن يجعل المرأة ترضيه بوحي من عاطفتها القوية تجاهه لا فقط ترضيه مكرهة على الإرضاء كي لا تغضب ربها، يستطيع أن يجعل الأشياء التي يستحقها تأتيه بغير مشقة، الرجل الصالح الكريم لن يحب أن يرى معاناة زوجته في إرضائه، لن يحب لها أن تدوخ «السبع دوخات» كي تتجنب لومه وملاحظاته وانتقاداته، الرجل الصالح الكريم رضاؤه قريب وسهل.

إن السعادة الزوجية تتطلب امرأة تعترف بأن عليها إرضاء الزوج، ولا تختلق الحجج للهروب من هذا المعنى، وتتطلب رجلًا لا يرهق زوجته الطيبة في طلب رضاه.

نادي المتزوجات

بالنسبة إلى بعض الزوجات الشابات لا يكون المنعطف الذي يبدأ من عنده تغير طريقة تعامل الزوجة مع زوجها وتعاطيها معه، إلى درجة أقل من الولع، لا يكون بالضرورة بسبب ضغوط أعمال المنزل، أو بسبب زيادة النفقات، أو بسبب الحمل والولادة، أو بسبب بعض الهفوات والنزوات التي حسبتها عليه وما شابه، بل يحدث تغير متدرج بسبب تغير علاقاتها الاجتماعية بعد الزواج بعد أن تحولت الآنسة التي كانت إلى هذه السيدة، وبالتحديد دخول الزوجة الشابة في عضوية نادي المتزوجات بعد أن كانت عضوة فقط في نادي الزوجية، وانفتاحها الشديد على مفاهيم نادي المتزوجات.

لكن ما هو نادي الزوجية هذا وماذا أقصد به؟ وما هو نادي المتزوجات؟

نادي الزوجية هنا أقصد به هو ذلك النادي الذي يجمعها بزوجها وحده، وقد صار هو الشخص الوحيد أمامها الذي تحب أن تفهمه تمامًا، والذي تعرف أنها ستبقى معه للنهاية، وتحب أن تفهم كيف يمكن أن تبقى معه للنهاية في رضا ووفاق، وتحب أن توجه إليه هو نفسه تلك الأسئلة التي فيها عن حياة الرجل والمرأة معًا؛ وهي تدخل هذا النادي غالبًا بقدر من التفاؤل والحماسة والرغبة في السعادة والرغبة في تكوين بيت يتجنب كثيرًا من مشكلات البيوت الأخرى التي تقادمت وأكل جدرانها الاكتئاب والإهمال واللا مبالاة، أو على الأقل أطفأ ألوان جدرانها الملل والاعتياد.

نادي الزوجية هي فيه ترى زوجها وأفعاله وسماته بقدر من الاقتراب والاهتمام والعطف والانفعال والجدية، وبقدرة على التبرير، وتتعامل مع زوجها على أنه شخص واحد ولا نسخة أخرى منه على الإطلاق، يمكن أن يوجد شبه بينه وبين بعض الناس في العالم الخارجي، ولكن هذا ليس مهمًّا، ولو حدث فإنه مختلف في النهاية عن أي إنسان مهما كان شبيهًا به، لأن هذا هو لي، وهذا كل شيء؛ إذن هي تراه حظها الذي يجب عليها أن تتمسك به وتضع كلتا عينيها عليه، وليس حظها الذي لها أن تنظر إليه من بعيد كي تعيد تقييمه، وليس حظها الذي يمكن أن تقارنه بحظوظ الأخريات، وليس حظها الذي يمكن أن تغافله في أي محطة من محطات الحياة إن لزم الأمر وتتركه وحده.

الزوجة في عضوية هذا النادي يكون لها نفسية الإنسان الشاب المتحمس الذي يذهب إلى العمل لأول مرة في حياته، في مكان محترم يرضي طموحه، واستعد لذلك جيدًا وجمع كل

عزيمته، وهو يريد أن يثبت ذاته ويريد أن يقوم بما عليه القيام به على أكمل وجه، ويظهر قدرًا كبيرًا من الحيوية والعافية والاهتمام بأي ملحوظة، ويتجنب أن يعرِّض نفسه للانتقاد، ويحرص على تكوين انطباع أكثر من جيد عنه؛ يكون لها نفسية الإنسان الذي ذهب للعمل لأول مرة وهو يقول بسعادة بالغة وبراءة متناهية: أنا هنا لأتعلم لا لأكسب، أنا هنا من أجل أن يشعروا بأهمية وجودي؛ إنها نفسية الشخص الذي يمكن إرضاؤه بسهولة بأي لمحة من التشجيع والتقبل، الشخص الذي يتقبل الاعتذار بمرونة واضحة، الشخص الذي يتعامل مع كل تفاصيل الكيان الذي انضم إليه على أنها من الأسرار الحساسة التي لا يصح أن يفشيها للآخرين.

أما نادي المتزوجات، فهو نادي المخضرمات، هُنَّ رئيساته وصاحبات الكاريزما فيه، حيث تبدأ الزوجة الشابة تستمع فيه إلى نساء خبيرات مر من عمر زواجهن فترة أطول، ويتعاملن مع الحياة الزوجية ببرود أكثر، وبتساهل يشبه تساهل الخبراء، وتبدأ في طرح الأسئلة التي عن حياة الرجل والمرأة معًا عليهن بعد أن كانت توجهها إلى زوجها وحده. على أن هذا النادي لا أعني به تجمع النساء في مكان محدد، فهو كل تواصل بين النساء عن حياة البيوت، ولو كان عبر الاتصال التليفوني، ولا أعني به جلسة خُصِّصَت من أجل البوح النسوي بالضرورة، فاجتماعهن في جلسة عزاء إذا تحدثن في خلالها عن حياة البيوت هي جلسة تقع ضمن مساحة النادي، بل إن تعليقات النساء على خبر طلاق مطربة أو ممثلة من زوجها بعد ما كان يبدو عليهما من وئام، تلك التعليقات التي تطلق أحكامًا عامة على جنس الرجال أو جنس النساء، هذه التعليقات تقع ضمن مساحة النادي.

نعود إلى المخضرمات، رئيسات النادي: تكون للواحدة منهن هؤلاء المخضرمات نفسية موظف قديم في كيان ما، يؤمن بأنه هنا كي يكسب لا لكي يتعلم، وخلف هذا وفي ألطف الفروض يؤمن بأنه هنا، في هذا الكيان، هو في علاقة نفع متبادل، هات وخذ، ويوجد ولاء في الحقيقة، ولكنه ليس كل شيء في النهاية، فهذا الولاء ليس عَلَمًا وطنيًّا مرفوعًا، بل هو يزيد وينقص حسب المعاملة والتقدير الأدبي والظروف وجودة الحياة والمزايا والمكافآت؛ هذا فرض لطيف، أما الفرض الذي لا لطف فيه هو يؤمن بأنه هنا في هذا الكيان من أجل نفسه، ومن أجل أفضل استفادة له لو استمر الوضع إلى النهاية أو انتهى في أي وقت.

إنها نفسية الشخص الذي يصعب جدًّا خداعه بكلمات براقة ووعود موعدها في علم الغيب، الشخص الذي يريد حقوقه كاملة، وأكثر من حقوقه في بعض الأحيان، والذي لا يجد أي مشكلة في البوح بأسرار الكيان الذي هو فيه بعد أن نزع من قلبه تلك الهالة التي كانت تحيط في البدء بالكيان، فأي شيء يمكن أن يقال، ما دام أن هناك رغبة في قوله.

اكتساب عضوية نادي المتزوجات بالإضافة إلى عضوية نادي الزوجية، هو في الغالب يعني تحوُّل الزوجة الشابة بقدرٍ ما من مزاج الانتماء التام وتقديس الحياة الزوجية، وحفظ أسرار البيت، حفظ أسرار البيت الذي يصل في بعض الأحيان من بعض الشابات المسكينات إلى أن تتكتم ولا تشكو إلى أمها من أمور جديرة بالشكوى بل وأمور خطيرة فرقعت في وجهها بعد الزواج لا يعلمها أحد، التحوُّل من هذا المزاج، إلى مزاج به قدر من استعادة الإحساس بالنفس، إلى مزاج به قدر من الانتباه للذات وما يريحها وما يناسبها، وما تحلم به وما لا تستطيع التأقلم معه.

هذا التحوُّل يفتح الباب كي تتغير معاملة الزوجة مع زوجها لدرجة يتم بها ضمور صورته كبطل في نظرها شيئًا فشيئًا، بطريقة ليِّنة وغير عنيفة ولكن بثبات وإصرار، ممَّا قد يؤدي في أحيان كثيرة إلى ضمور البطل الذي به استجابةً منه لنظرتها إليه، لأن البطل ليس فقط حصيلة ما في الرجل من استعداد وما للرجل من ظروف، إنما هو أيضًا حصيلة نظرة الزوجة إلى زوجها، ودرجة إيمانها بهذا البطل، وحالة السلم أو الحرب مع هذا البطل، هو أيضًا حصيلة مدى شعور الرجل بالانكشاف أمام زوجته، انكشاف الجزء العشوائي في شخصيته الذي يشبه حائطًا لم يتم طلاؤه بعناية، انكشاف المساحة التي لم يهتم بها الرجل في نفسه، مساحة الجهل أو الاضطراب أو السذاجة أو الهمجية.

واكتساب عضوية نادي المتزوجات يعني في بعض الأحيان التحول إلى مزاج به قدر ما من الجحود والنكران إذا ما كان من نصيب الشابة أن تقع وسط دائرة يغلب على النساء فيها الامتعاض من تجربة الزواج بشكل عام، سواء كان هذا الامتعاض مغلفًا بروح المرح والدعابة أو لا، وسواء كانت قد أخذت في البدء شيئًا من هذه العقيدة من الحياة العائلية لأمها مع أبيها أو لم يكن الأمر كذلك، وهو ما يعني ضمور صورة الزوج عندها كبطل ولكن بوتيرة أسرع وبعزيمة أشد وبيقين لا يتزعزع، وهو ما يعطي فرصة أكبر لقتل البطل داخل الرجل، تحت

تأثير نظرات الزوجة الثابتة إليه كإنسان تنقصه أشياء كثيرة مثل معظم الرجال ولا يصلح للانفراد بأي قرار، أو أنه رجل مثل الرجال كائن ميؤوس منه بالفطرة، وهذا شيء صار مثل العقيدة التي اعتنقتها داخل النادي.

وقليلًا ما يحدث ألا يتأثر الرجل بصورته عند امرأته، وهذا الذي لا يتأثر هو واحد من رجلين، إما رجل يعرف نفسه جيدًا، وواثق من نفسه، وهو غريب مع امرأة لم تقدر خصاله ولم تحمد جميله، ولم تناسبها مزاياه، وإما رجل وغد يمكن أن يظلم ولا يشعر بأي أثر في نفسه للعين التي تراه وهي مليئة بالشكوى.

قليلًا ما يحدث ألا يتأثر الرجل بصورته عند امرأته، هو يمكن أن ينكر، ولكنها الحقيقة، فإحدى المواهب العظيمة التي عند النساء هي تلك القدرة على التأثير على عقل الرجل وقناعاته بشكل جذري، يمكن في الجولة الأولى أن يبهرها الرجل ويسيطر عليها ويؤثر فيها، هذه هي غارة الرجال -وليست قاعدة أن يكون أول الأمر بين الاثنين غارة من الرجل- أما بعد ذلك فهي في حالات كثيرة تبدأ في التأثير عليه ببطء ولكن بعزيمة ثابتة بغير فتور، في زحف مستمر؛ وهي تستطيع أن تدعم عند زوجها الذي يعمل حارسًا على مخزن بسيط خارج العمران أنه الذئب الأخير في البراري الذي لا يستأنسه أحد، وتستطيع أن تربك زوجها الفذ الذي يلاقيه الناس بالتبجيل في كل مكان بإيحائها إليه بأنه شبه ناقص الأهلية؛ النساء يستطعن ذلك، ولا ينجو من هذه القدرة كما قلت إلا عظيم الشأن الذي يعرف نفسه والوغد الذي عجزت المرأة عن أن تجعله يحبها مثلما أحبته، وأغلب الرجال في المنتصف بين الرجلين.

كل واحدة فيهن في نادي المتزوجات لا تنظر إلى زوجها وخصوصًا إذا اجتمعت مع الأخريات على أنه فلان الذي عاشت معه، فلان الذي يخصها وحدها، بل هو رجل كالآخرين، يمكن تصنيفه والتعامل معه كرجل مثل الآخرين، وحتَّى إذا كانت له سمات محددة فيُوسَم بالكود الملائم لينضم إلى فئة معينة من الرجال الذين يجب التعامل معهم بطريقة معينة، حيث يتحوَّل الرجل من شخص أعيش معه بانفعالاتي الطبيعية وصدقي التام، وأعرف قرارة نفسه وتلمَّست ما عاناه في الحياة وأعرف عيوبه التي يحاول أن يداريها أو لا يحاول، إلى شخص أتعامل معه بأسلوبٍ ما ينجح مع فئته من الرجال، يتحوَّل من شخص أشتبك معه بنفسي وروحي، إلى شخص أستخدم معه أدوات لها مقاييس وطرق استخدام محددة، يتحوَّل من شخص لا أتحمل

رؤية معاناته، إلى شخص يمكن أن أستخدم معه طريقة يعز عليه بها النوم والأكل لمدَّة أيام لأنه قد قيل لي إن هذه الطريقة تؤدب الرجال وتجعلهم يتواضعون وينضبطون.

هذا هو نادي المتزوجات، وهو في حد ذاته أمر واقع وطبيعي، وموجود في حياة النساء من كل الشرائح، وستدخله أي شابة في النهاية، والرجل في الغالب يرحب بدخول الزوجة في هذا النادي، حتَّى تمتلئ حياتها بالصداقة، وتعود إليه وقد رفهت عن نفسها، وتسمح له بأن يعطي عمله وأصدقاءه نصيبًا كافيًا من يومه، وبعض الرجال المحبين للرقة والجمال يتخوفون من أن تفقد الزوجات هناك روح البنت إلى الأبد، ويتمنون لو اعتنت الزوجة باختياراتها هناك، بحيث لا تكتسب جرأة وخشونة بعض النساء مفتقدات الأنوثة، وبعض الرجال يتخوفون من نصيب زوجاتهم في هذا النادي إذا كان الزوجة قد أثار إعجابها امرأة لا يشعر الزوج تجاهها بالارتياح، وهذا أمر يجب أن تأخذه الزوجة بجدية، هذا إذا ما كان الرجل تضايقه امرأة محددة فيها اختلاف يشعر به عن روح زوجته ومستوى أخلاقها.

نادي المتزوجات ليس متهمًّا في جميع الأحوال، من الإجحاف أن يقال هذا، فلا يخلو دخول المرأة لنادي المتزوجات من فوائد تعود على الحياة الزوجية، مثل ضبط انفعالات زوجة شابة ضاغطة على زوجها ربما بسبب غيرتها عليه في غير موضع الغيرة والريبة، كأن تتشاجر معه لأن جارتها في العمارة التي هي أكبر منه سنًّا سألته عن إيصال المياه، وربما بسبب أنها تريد منه أن يتفرغ لها ولا يقابل أصدقاءه، أو ربما بسبب أنه اعترض على أن تخرج معه بفستان معين فاتهمته بأنه يشك فيها وأنه إذَنْ يراها غير سوية، في هذه الحالات يلعب نادي المتزوجات دورًا كريمًا، فيجعل الزوجة الشابة ترحم نفسها من العواطف المبالغ فيها، وتؤمن بأن زوجها في النهاية هو إنسان عادي ليس شديد الجاذبية ولا ترغب النساء في خطفه منها، وأن تعاملات الجيران فيما يخص الإيصالات لا تعني بالضرورة أنهم يبحثون عن حجة للكلام معًا، ويجعل الزوجة تؤمن بأن لقاء الرجل بأصدقائه لا يعني أن أشواقه كلها قد ماتت، ويجعل الزوجة تفهم أن ملاحظات الزوج لا تعني بالضرورة شكه في أخلاقها، ويجعل الزوجة في العموم تعطي زوجها حيزًا مقبولًا للحركة، ويمنع حدوث شلل في العلاقة بسبب قوة العاطفة والتعلق.

وقد كان من نصيب أي شابة في الماضي في أغلب الأحيان، أن تكون على مقربة من نساء يشبهنها نوعًا ما داخل نادي المتزوجات، ليس بالضرورة أن تجد من يشبهنها تمامًا ولكن تجد

نفسها مع من تجمعها بهن أرضية مشتركة على أية حال، واحتمال أن تتعرَّض لغارة من أدمغة مختلفة من نساء من بقعة أخرى في الحياة لها قيم مختلفة ومفاهيم مختلفة، كان احتمالًا قائمًا في الحقيقة، في شكل جارة، في شكل زميلة عمل، ولكن لم يكن هذا أغلب ما يحدث في حياة الشابات المتزوجات.

لكن نادي المتزوجات قد تغير تغيرات مذهلة مع وجود وسائل التواصل الاجتماعي وبروز مجموعات التآزر النسائية، فقد تخطت المواساة بأجنحتها القوية كل الشروط الطبقية والثقافية التي تبدو على الأرض راسخة وحاجزة، فعلى الأرض لا يستطيع كل الناس الاختلاط ببعضهم بعضًا، على الأرض توجد البوابات، وتوجد الشروط، وتوجد الأعين التي تقول لك من أنت وماذا أتى بك؟ وكل شريحة من الناس تبدو غريبة إذا اقتربت من عالم الشريحة الأخرى، لكن المواساة، وبخاصة المواساة الإلكترونية، يمكن أن تجعل الإنسان يدخل قلب أي أحد، وهذا يظهر بشكل أقوى عند النساء بسبب القوة العاطفية، فالسطور تقول ما في قلوبنا، ما يحز في نفوسنا، ولا يكون وقتها لحقيقتنا الاجتماعية وهويتنا الثقافية حجمًا، فالتي ترتدي النقاب يمكن أن تثير بسطورها تعاطف من لا تعترف بالحجاب أصلًا، وهكذا، ويمكن للعروس المتعلمة التي تعيش في الحقيقة في نجع يعاني عدم وصول مياه الشرب النقية بانتظام، أن ترسل شكواها إلى الجروب النسوي من عدم اهتمام عريسها بالاحتفال بعيد ميلادها أو عيد الزواج واحتقاره تقريبًا لجميع الاحتفالات الرقيقة، وتفرح عندما تبدأ في ملاحظة علامات التفاعل بين أعجبني وأحببته وأحزنني على منشورها الذي أحسنت صياغته بحيث يؤثر في الأخريات، وكان الأمر بالنسبة إليها تنهيدة ما أحبت أن تكون تنهيدة جميلة ترد عليها الأنفس الأخرى التي تعيش في عوالم أخرى، وهي تعلم أن حالة خيبة الأمل التي خيمت عليها لأنه لم يلحظ أن اليوم هو تاريخ زواجهما هي حالة مؤقتة ستذهب وحدها، وكل ما فعلته كي تعبر عن حسرتها هو مفهوم من شابة صغيرة مثلها، فنحن نحب مهما كانت حياتنا جافة ورمادية ومتواضعة الملامح، نحب أن نُخرج ذلك الإنسان المرهف يقظ الأحاسيس الذي فينا، الذي لا تسمح له ظروف المعيشة بالخروج للعلن، ونحب أن نكتب الخواطر الرقيقة بينما نحن غارقون للركب في تفاصيل عديمة الرقة.

ويمكن في هذه اللحظة أن تجد الشابة التي تعاني هي وجيرانها نقص مياه الشرب النظيفة، تجد علامة تدل على أن إحداهن تحاول كتابة تعليقها على البوح، وتكون هذه التي تكتب الآن ردًّا هي امرأة تقف في واحدة من أرقى سلاسل التسوق في أرقى مدن العاصمة، تقف عند أرفف المياه الغازية المستوردة لتشتري ماركتها المفضلة؛ هذا شيء بهي ومثير ولا يخلو من لطف في الحقيقة، وهو شعور النساء ببعضهن بعضًا في المجموعات والصفحات بصرف النظر عن تعقيدات الواقع، جميل أن تشعر إنسانة بإنسانة أخرى ولو لم يكن من الممكن أن تجمع الحياة بينهما لا في واجب عزاء ولا عند الكوافير ولا في غرفة مريض بمستشفى.

ولكن رغم جمال المواساة التي تحلِّق وتتخطى الحدود المجتمعية، إلا أنه يمكن القلق دائمًا بخصوص تلقي الإنسان نصيحة من شخص آخر في مكان آخر هو لا يعرف في الحقيقة ما الذي يمكن لهذا الإنسان الذي يشكو أن يتحمَّله، ما هو مؤهل لتحمله نتيجة للخشونة التي اكتسبها من حياته، ويمكن القلق في الحقيقة أكثر من ذلك، القلق من أن يفقد الإنسان قدرته على تحمل ما يستطيع تحمله إذا أشار إليه الآخرون بأن هذا الذي يضايقه هو فوق الطاقة.

المرأة الأنيقة أخذت تدفع عربة التسوق ببنطالها الجينز الذي أدخلت طرفيه الضيقين في الحذاء البوت ذي الرقبة الطويلة وكتبت بجوالها وعلى نغمة الكعبين على الأرضية الصقيلة: انتبهي حبيبتي، فهذا سلوك رجل لا يحب امرأته، اسأليني أنا، وانتبهي إليه جيدًا، وستعرفين ما أقول لك. والحقيقة بالطبع أن الرجل من طبقة المرأة الراقية هذه يمكن أن يحتفل مع امرأته بجميع المناسبات وهو يحب السكرتيرة، لأن التعبير والتصرفات واللمسات شديد الأهمية هناك في ذلك العالم الراقي، هي كل شيء تقريبًا، ولا يوجد مسامحة مع من لا يعطي التعبير عن المشاعر أهمية، بحيث إن التعبير عن المشاعر هو تقريبًا المشاعر هناك، بينما العالم الذي يعيش به الرجل الآخر زوج الشابة الشاكية، الذي لا يزال يحمل جوال الأزرار، لا يعطي أهمية كبرى للتعبير عن المشاعر والحفاظ على اللمسات، ويمكن للرجل في هذا العالم أن يحب امرأته، وهو ما يعني أن يشعر بالرضا عنها والاكتفاء بها، ورغم ذلك لم ولن يحتفل بأي مناسبة، ولا يعرف إيقاد الشموع إلا إذا انقطعت الكهرباء.

بشكل عام، يمكن أن نقول إن النساء الآن يستمعن داخل نادي المتزوجات، بسبب التأثير الرهيب للسوشيال ميديا، للآراء العنيفة الطائشة التي يمكن أن تجعل الزوجة تكره زوجها أو

تعانده وهو لا دخل له بالمشكلة التي قرأتها ولا هو يشبه الرجل الذي فيها بأي وجه، هذا بخلاف حالات طلب الطلاق الكثيرة التي تسببت فيها تعليقات غير مسؤولة حرَّضت صاحبات البوح على الطلاق وفورًا.

البطل الذي في الرجل إذَنْ هو الذي انضمت امرأته لنادي المتزوجات بالطبع مثل أي امرأة، ولكن جميع النساء لا يغلبنه في امرأته، وهذا بسبب أنها تضع الزوج في حجمه الذي يستحق، وبسبب أنها أحسنت اختيار من تقترب منهن في نادي المتزوجات، وبسبب أنه يعاملها باحترام ويحتويها، ويعطيها الفرصة كي تشكو منه إليه، وهذا مهم جدًّا، فمن الحماقة أن يحرم الرجل زوجته من الدعم والاهتمام ويخفض العلاقة إلى مستوى رمادي، ويدفعها إلى اليأس منه، وفي ذات الوقت هو يأمل ألا تهتم بآراء النساء وألا تبحث عمن يمكن أن تقويها وتدعمها وتعينها على مقاومة الذبول، هذه حماقة، هي ليست أقل من حماقة.

والزوجة الصالحة العاقلة هي التي تعرف جيدًا من هي، ولها ذوق راسخ في اختيار الصداقات والمعارف، ليست عشوائية ولا متخبطة، وتدخل نادي الزوجية بوعي، وتميز بين أطياف النساء داخل النادي، وتعرف ما الذي يجب أن لا تتكلَّم عنه على الإطلاق، وما الذي يجب أن تنتقي له إنسانة عاقلة فاضلة كي تتكلَّم عنه معها، الزوجة الصالحة العاقلة تبحث في هذا النادي عما يفيدها، وستجد في ركام التندر والمفارقات والسخرية من عموم الحياة الزوجية أشياء براقة ونافعة؛ الزوجة الصالحة العاقلة تنضج من دون تشوهات، تفهم من دون صدمات، وتبتعد عما لا يناسب الحبل المتين الذي بينها وبين زوجها، تعرف ما الذي تنصت إليه وتفتح لها قلبها، وتعرف ما الذي يجب أن تنأى عنه، وهي تعرف في النهاية أنها تعرف زوجها أكثر ممَّا تعرفه الخبيرات مهما تشابه الرجال في أنظارهن، وهي لن تتكلَّم عنه بطريقة ساخرة تحط من شأنه كنوع من المجاراة للنساء الأخريات، لأن أفكار الإنسان تتغير تبعًا لما يتفوه به حتَّى لو تفوَّه به وهو لا يقصد أن يكون جادًّا تمامًا، فبلاء العلاقات الزوجية موكل بالمنطق، فإن سخرنا بألسنتنا سخرت قلوبنا.

الزوجة الصالحة العاقلة ليست هي التي تدخل نادي المتزوجات لتتعلم هناك أساليب التجسس الذكية واختراق الحسابات الشخصية، وعمل حسابات نسائية مزورة للفيس لاختبار الزوج واختبار مقاومته، ولا هي التي تدخل نادي المتزوجات لعمل أسحار المحبة عند الدجالين،

بل هي التي تدخل هناك وتزداد علمًا بالطرق التي يمكن أن تزداد بها جاذبيتها عند زوجها، وتعرف قيمة المعاملة الحسنة، وتعرف قيمة حنانها عليه وعنايتها به.

يبقى على الرجل العاقل أنه هو الذي يجعل دخول زوجته نادي المتزوجات دخولًا يسيرًا يزيدها ولا ينقص منها، يضبط توازنها ولا يؤدي إلى ترنحها، يجعلها لا تدخل بنفسية متعطشة، بل بمزاج معقول هادئ معتدل، هو الذي لا يجعل زوجته تعتبر النساء الأخريات عزوةً عليه تتقوى بهن وتعود إليه بوجه غير الذي خرجت به.

البطل الذي تحبه زوجته

البطل الذي في الرجل هو الذي يشعر بأن زوجته تحبه وترغب فيه ولا تتحمَّل الدنيا من دونه، ويحلو لها أن تكون معه، ويحلو لها أن تفكر في سعادته، وتخشى عليه ممَّا يحزنه ويحيره، وتغضب ممَّن يضايقه أو يجور عليه أو يسيء إليه، وتبحث عن مواطن رضاه، وتصرف عنه مواطن ضيقه وانزعاجه، وإذا وجدته في حاجة إلى المعونة من أي نوع تحركت نفسها لإعانته، وهي في الجملة تشعر بالإعجاب المستقر به، أو ذلك الرضا العام الذي يجعلنا نقبل الشخص بلا تذبذب، ومن الصعب جدًّا أن تمُرَّ عليها تلك اللحظات من التنفيس عن الضجر، تلك التي يمُرُّ بها الناس، التي نتخيل فيها أنه قد ضاع منَّا شخص ما في الزحام، ونفكر وقتها كيف يمكن أن نبدأ من جديد من غيره، فكرة البدء من غير هذا البطل صعبة التخيل جدًّا؛ وهذا الحب كله بالطبع وكما يبدو بوضوح ليس راجعًا فقط إلى نفقته على الأسرة، بل لأن العيش معه وخاصة في لحظات الوفاق أجمل ألف مرة من العيش من دونه، ولأنها تتلذذ بمزاياه وتتذكرها دائمًا، وهي تعتبر الزوج نعمة وليس الأبناء فقط هم النعمة.

هذا هو الوضع المثالي فيما يخص شعور البطل الذي بالرجل أن امرأته محبة له متعلقة به فرحة به، وفيها شيء من التباهي بأنها فازت به دون أي امرأة، وهو في المقابل يتعامل مع زوجته حتَّى لو كبر أبناؤهما على أنها فتاته، ذلك لأن ما يهمه منها وما يركز عليه هو لهفتها عليه، واحتياجها إليه، والأوقات التي يختليان فيها؛ وهما يتعاملان في الغالب مع تفاصيل الحياة الواقعية بدرجة انتباه محدودة مقارنة بالأسر الأخرى، وهذا البطل يكون سمحًا مع زوجته بشكل واضح، ويترك لها مجالًا واسعًا للحركة، حتَّى يحفظ لها نفسية الفتاة المتفتحة المتألقة الروح ولا تطفئها التزامات الحياة، وهو يمكن أن لا يلومها أبدًا على أنه عاد ولم يجد الطعام جاهزًا، ولا أي شيء من هذه التفاصيل التي يمكن أن تعانيها امرأة أخرى، فهو يميل إلى إكرامها وتدليلها، ولا يتعامل معها على أنها كائن ناضج عليه واجبات لا بد أن يؤديها، بل هي فتاته التي يعود إليها وإلى شوقها إليه، وهو في العموم رجل روحه حلوة ويغض بصره عن الإهمال إذا ما قيس بغيره من الرجال.

هذا بطل، لكن هناك بطلًا آخر أوسع انتشارًا في نوع آخر من الرجال، البطل الذي في هذا الرجل هو الذي يهمه الرعاية والاهتمام، ولا يتنازل عنهما كأهم حقوقه لدى زوجته المتفانية، الرعاية والاهتمام هما بالنسبة إليه الحب نفسه. وهذا النوع العقلاني الواقعي الجاد من الأبطال

والرجال هو لا يعرف كيف يفسر الحب نفسه، لا يعرف يحدد ماهية الحب، ماهية أن يحب زوجته، ماهية أن تحبه زوجته، دائمًا ما ينزلق في أثناء التعريف من الحب نفسه كعاطفة إلى الأشياء الأخرى التي تشير إليه، مثل الرعاية، ومراعاة الشعور، وعدم العصيان، وعدم الإهمال، وهو في المجمل لا يهتم بمحاولة التعمق لفهم ما يدور داخل نفسه زوجته أو نفس أي أحد، هو يفكر فيما يصدر من الناس فقط، وفي تقسيم الناس إلى ملتزمين بواجباتهم ومقصرين، لذلك يمكن أن يستاء بشكل مبالغ فيه إذا ذهب إلى العمل بقميصه وزر القميص غير مثبت بشكل جيد، وهو لن يستنتج من ذلك ويحتج على أنها لم تعد تهتم بتفاصيله مثل الأول، وبالتالي فهي لا تحبه مثل الأول، هذا بالنسبة إليه هراء، أو شبيه بالهراء، هو يفكر في زر لم يُثَبَّت جيدًا ليس إلا، وهذا النوع لا يكثر من قول: أحبك، ولا يميل إلى أن يقول لزوجته: هل تحبينني؟ ولكنه مع زوجة طيبة متفانية مطيعة يحصل على الحياة الأسرية التي يبتغيها، ويشعر بأن أموره على ما يرام.

البطل الأول يريد المرأة نفسها، ويتجدد احتياجه إليها، البطل الثاني يريد الأشياء التي يجب أن تقدمها له المرأة، البطل الأول يشغله مشاعرها تجاهه، يعطي هذا الأمر حجمًا كبيرًا، هو يريدها شديدة التعلق به شديدة الاعتماد عليه، البطل الثاني يهمه أن يكون له تأثير على زوجته، لدرجة أنها تطبعت بطباعه، وتساقطت منها تباعًا تلك الأشياء التي يمكن أن تزعجه، وهذا عنده هو أفضل ما يمكن أن يأخذ الرجل من المرأة، هذا هو عنده معنى أن المرأة تحب زوجها. وهذا الرجل يهمه درجة تأثير الزوجة على جودة حياته، ودرجة عنايتها بالأبناء، وحسن تدبيرها لأمور المنزل، وقدرتها على توفير درجة من التوازن والهدوء والصفاء في جو البيت.

البطل الأول يشعر بدرجة واضحة من الاستقرار العاطفي بينه وبين امرأته، ذلك الاستقرار الذي يبدو معه حب امرأته له كواحد من حقائق الدنيا الراسخة، وهذا الشعور نعمة كبيرة في الحقيقة، وهو لا يتوقَّع أي انقلاب عنيف في توجه مشاعرها إليه، وهو مطمئن البال من ناحيتها، ولا يخشى من أن تغيرات حياتية تحدث لها تؤثر على حبها له ونظرتها إليه.

البطل الثاني سعيد أيضًا، فهو يشعر بدرجة واضحة من الاستقرار في الحياة الزوجية، مع زوجة مطيعة مستقرة الطباع تعرف واجباتها وتعرف طباعه، وهو لا يتوقَّع حدوث أي تمرد

يقلب حياته العائلية رأسًا على عقب، فامرأته تحبه، ذلك الحب الذي هو التقدير، والطاعة، والذوق، والتفاني، والصبر، والخوف من مضايقة الزوج.

والمرأة يجب أن تلحظ مع أي نوع من الرجال جاء نصيبها، فإنها إن كانت رومانسية تغلب عليها الطبيعة الأنثوية وتحب أن يهتم بها زوجها، ويعبر لها عن مشاعره الجميلة، فإنها ستحتاج إلى بعض الجهد كي تشعر بالسكينة مع البطل الثاني الذي لا يهمه اللفتات الحانية ولا يهمه الرسائل الرقيقة منها على شاشة جواله، لأن الود الذي ينتظره من المرأة يأخذ شكل بيت نظيف مرتب هادئ، وأطفال يرتدون ملابس نظيفة، وطعام جاهز، وقدر معقول من البوح لا يشمل أي أخبار سيئة. وأول ما تبدأ به للحصول على السكينة هو أن تصحح تصورها عنه، لأن التصور الصعب سيجعلها تجلس على مقعد الإحباط: هو ليس رجلًا جافًّا، بل رجلًا يوفر الشعور بالأمان، ويقود عربة المسؤولية بانتباه يجعله لا يضيع من معه؛ وهو ليس رجلًا لا يعبر أبدًا عن عواطفه، فعندما يعود إلى البيت ولا يجدني فيه، ويتعجل عودتي، فهذه هي الطريقة التي تناسب تكوينه للتعبير عن عواطفه، يكفيني من عظيم محبة رجل من نوعه أنه لا يستغنى عنِّي.

وإنها إن كانت صاحبة همة ونشاط ونظام، وشديدة العناية بالبيت وبواجبات الصغار، وإعداد وجبات شهية، فإنها ستحتاج إلى بعض الجهد مع البطل الأول الذي يفضل أن تترك زوجته غسل الصحون لأنه يريد أن يجلس معها، وهي بطبيعتها لا تحب أن تترك شيئًا في يدها حتَّى تنهيه، وليست بها حاجة إلى أن تعيش حالات عاطفية مطولة، فهذه أمور بالنسبة إليها وقت محدود، ودروس الأطفال أهم وأعظم منها، ولا تكاد تمثل شيئًا يذكر في بحر الحياة الجادة المليئة بالتحديات، لذا هي يجب أن تجاري زوجها في أدائه العاطفي الذي يبدو لها مبالغًا فيه، قدر الإمكان، حتَّى لا يصاب بالإحباط، وتعتبر هذه المجاراة من ضمن أعمالها المنزلية التي لا تحب أن تؤجلها، هي لن تستطيع أن تكون مثله، لكن عليها ألا تجعله يشعر بطريقة مزعجة أنها على النقيض منه تمامًا، عليها ألا تجعل هذه الحقيقة تضرب في وجهه، وهذا كله يبدأ من تصحيح تصورها عنها: هو ليس رجلًا تافه الاهتمامات، بل رجلًا حنونًا يعرف كيف يحتوي أنثاه، فإن كنت أنا زوجته من أعظم اهتماماته فهذا يؤكد أنه ليس تافه الاهتمامات.

والمرأة يجب أن تعرف أن البطل الذي في كل رجل من هذين الرجلين يمكن أن يتأذى ويتغير بسبب تصرف ما وقد لا تستطيع أن تستعيده بعد هذا التصرف، لذا هي يجب أن تنتبه ممَّا قد لا يتحمَّله، يجب أن تعرف أين يوجد حقل الألغام، كي لا تحوم حتَّى بالقرب منه، وهذه قاعدة عامة لأي زوجة: أنتِ لن تستطيعي أن تتجنبي فعل أي شيء يضايقه، مستحيل، وهذه أصلًا ليست حياة طبيعية، ستضايقينه، وهذا لا يطعن في مثاليتك، ولن يمنع عنك رضا الزوج، ولكن يجب عليكِ أن تكون على دراية تامة بما لا يمكن أن يتحمَّله ذلك الشخص الذي تعيشين معه، تتجنبي ما يمكن أن يقفل قلبه من ناحيتك ويجعله يشعر بأنه مصدوم فيكِ، نعم، الخبر القاسي هو أن هذه مسؤوليتك مهما كنتِ صغيرة وبريئة، الخبر القاسي هو أنه يؤمن بأن معرفتك به من خلال العِشرة من المفترض أن تجعلك تعرفين ما لن يستطيع أن يتحمَّله من دون أن يكون قد ذكره بوضوح ضمن قائمة محظورات.

هذه أمور تختلف من رجل لآخر، فيمكن لرجل أن يعرف أن زوجته ذهبت مع أختها إلى رجل دجال صانع أعمال، لأنها تشك في أن أحدًا ما صنع لها سحرًا، حسب تفكيرها، ويسألها عما جرى وهو يدخن الجوزة، ويهز رأسه مؤيدًا لتلك الزيارة، هذا كل شيء، ويمكن لرجل آخر إن عرف أن زوجته ذهبت إلى دجال وكلمها من ضمن حديثه عن شيء تستخدمه في استحمامها أن يطلقها، بل وربما لا يرضى أن يردها مرة أخرى؛ ولا يهمني هنا في هذا الموضع أن أتأمل شدَّة موقفه، أنا هنا يسترعي انتباهي عدم فهم زوجته التام له.

نعود إلى البطلين، وما لا يتحمَّلانه: أما البطل الأول المهتم بالمشاعر، فقد لا يتحمَّل منها أن تنتقده الانتقاد الذي يفهم منه أنها أفاقت وخرجت من تحت عباءته العاطفية، لا يتحمَّل منها أن تقول إنها تؤمن بأن الرجال الآخرين بشكل عام هم متفرغون للفرص ولاقتحام الحياة أكثر منه، وهم مقاتلون ذوو لياقة نفسية أفضل منه، وتقول إنها بدأت تعتقد أن الرجل يجب أن يحب الكسب والسعي أكثر من أي شيء آخر من أجل أبنائه، يجب أن يحب المال أكثر من الغرام والأوقات الحلوة مع الزوجة، وأنها تفهمه الآن على أنه ليس أكثر من رجل طيب حنون محدود الطموح.

هذه الأفكار أن باحت بها بأي أسلوب، دفعةً واحدة أو بالتدريج، هي بالنسبة إليه ضربة في مقتل موجهة إلى البطل الذي فيه، مُذلة لتصوراته عن نفسه، فهو يريد منها أن تؤمن به إيمانًا

أعمى كإيمان المريد بالشيخ، وهو يتحمَّل أن تنام وهي تدخن سيجارة فيحترق العفش، لأن مسامحته لمحبوبته جزء من تركيبة البطل الذي فيه، لكنه لا يتحمَّل أن تتغير نظرتها إليه.

أما البطل الثاني صاحب الهيمنة، فقد لا يتحمَّل من امرأته كل ما لا يتحمَّله الحاكم من وزيره المقرب، لا يتحمَّل منها أن تفشي سرًّا من أسراره، لا يتحمَّل منها أن تخفي عنه شيئًا كبيرًا كان يجب أن تخطره به، مثل أن تنال نصيبها من الإرث وتضعه في المصرف من دون أي يعرف، حتَّى لو لم يكن بأي حاجة إلى مالها، لكن الكتمان هذا يبدو خبيثًا، لا يتحمَّل منها أن يظهر عليها حرص بالغ مفاجئ وجريء بأن تستحوذ على أكبر قدر ممكن ممَّا يملك، بأن يكتب باسمها شقة أو قطعة أرض بطلب منها لا هديةً منه من تلقاء نفسه.

وهذا كله يرجع إلى أنه يعتز بها كإنسانة طيبة، تعتبر نفسها منه، وكان ينعم عليها من وجهة نظره بأنه مطمئن لها تمام الاطمئنان، وهذا الاطمئنان الكامل ليس من طباعه مع الآخرين، وبأي فعل من هذه الأفعال الثلاثة هي كأنها تقفز خارج جنة ثقته التي لم يدخل فيها أغراب وأصحاب، هي لم تعد كما كانت، وهيمنته عليها صارت مهددة بشكل واضح، أو أنها هكذا من الأول ولكنها تمسكنت معه حتَّى تمكنت؛ هكذا تتداعى الأفكار داخله.

هذان بطلان من نوعين مختلفين تكلمت عنهما، وعكس ما يعيشه كل منهما من بطولة هو ما يشعر به رجل يحس بأن وجوده في حياة زوجته بعد كل ما قدَّم من أجلها وبعد أن مرَّن نفسه على تجنب الأشياء التي تضايقها، هو يقع في خانة: لا بأس، يقع أغلب الوقت في هذه الخانة، ويشعر بأنه دائمًا في وضعية الاختبار، وعلى هذا ومن أجل أن يستمر في محاولة نيل الرضا أو تهدئة الجواء يغذي نفسه بالقليل من المواقف التي تعبر عن اعتزازها به، تلك المواقف المتناثرة في خلاء واسع من تعبيرها المستمر عن شعورها بالإحباط أو شعورها بالملل.

وعكس ذلك وأكثر خطورة منه أن يشعر الرجل مع مرور العمر أن رصيده العاطفي عندها آخذ في الاضمحلال حتَّى لو كان مجهوده وتعبه قد زاد ومحاولات إثبات اعتزازه بها قد تعددت، فيقضي عمره وهو يبحث عن الثقوب التي عليه أن يلحمها في إطار العلاقة، وكلما وجد شيئًا وعالجه وتفاءل عاد التسريب من جديد، وهو لا يعرف إن كان هذا عائدًا لأنه فقد أي جاذبية بسبب عوامل الأيام وانكشافه أمامها بما فيه من ضعف، أو لأنها نضجت بفعل السنين لذا صارت تراه على حقيقته ليس فيه بطولة.

عكس ذلك أيضًا أن يشعر الرجل بأن عواطف زوجته تجاهه ربما ليست سيئة ولكنها أيضًا ليست بالقدر الذي يرضيه ويرضي البطل المهشَّم الذي فيه، وهو يخشى من أن أي تغير في صالح زوجته ربما ينثر ما بقي فيها من عاطفة تجاهه، ويجعلها تراه بطريقة أخرى، وهو يعلم أنها ستعبر عنه هذا التغير في تعاملها معه مباشرة، مثل هذه التغيرات والمواقف: تعرفت إلى صديقات من مستوًى راقٍ وقامت بمجاراتهن وأعطينها الإحساس بنفسها وجعلنها تميل إلى التدلل والشح العاطفي تجاه الزوج، نزلت عليها ثروةٌ ما ورأت أنها صارت في الحقيقة تمتلك أكثر ممَّا يمتلك، جاءتها وظيفة مرموقة، نحفت وازدادت رشاقة، قال الشحاذ لهما في الطريق حفظ الله لك ابنتك؛ كل هذه الأمور ومثيلتها التي تثقل كفتها، أو خفت بها كفته كزيادة وزنه، أو سقوط شعره، ستؤثر على تعاملها معه بدرجة ما.

إذن الرجل الذي يشعر أن امرأته لا تحبه حبًّا راسخًا، أو لا تقدره تقديرًا أكيدًا، ويتقلب مزاجها تجاهه حسب الأحوال، يشعر بقدر ما من التهديد، وردَّة فعله تجاه هذا التهديد اختيار من اثنين: إما أن يستمر في تقديم اللمسات الطيبة الحنونة خوفًا من أن تصل الأمور من ناحيتها إلى مستوى الرتابة والتصحر، مهما وجد أن استقبالها دون ما يرغب فيه، وهذا الاختيار الذي يميل إليه الشخص محدود الخيارات، وكذلك الشخص العاطفي الذي يتحرق من أجل الحفاظ على جذوة الحب الأولى، مهما أتعبه ذلك، لأنه يخشى أن يفشل عاطفيًّا، من ضمن جملة مخاوفه من أي فشل. هذا الاختيار الأول، وأما الثاني فهو أن يقرر ألا يبالي بها ويهتم بأولاده وشؤونه العملية ويتركها تتخبط في انطباعاتها عنه واحتجاجاتها عليه ولا يرى أهمية كبرى لمشاعرها ما دام أنه يعامله بشكل جيد، وما دام أن كل منهما يقوم بما عليه، وهذا اختيار أغلب الرجال الذين يشعرون بالتهديد من الهبوط التدريجي في مشاعر الزوجة.

والمرأة العاقلة الصالحة هي التي توفر للرجل نوعًا من الطمأنينة على الحالة العاطفية، تؤكد له أن الذي بينها وبينه كبير، وبعيد عن أن تنال منه التقلبات، نعم هناك أيام حلوة وأيام مُرَّة، وأيام اتفاق وأيام اختلاف، ولكن وجودك يا رفيق العمر غير قابل للنقاش، ومنزلتك كذلك غير قابلة للنقاش، ومكانك في القلب غير قابل للإفراغ، ولا مجال لأن يفرقنا الطيش أو الهوى أو نزغ الشيطان.

نعم، لعل من أجمل وأهم ما توفره المرأة للرجل هو الطمأنينة من ناحيتها، هو لا يقول ذلك في الغالب ولكنه مهم جدًّا له، توفر له الطمأنينة بحيث إن زوجها لا يفتش في وجهها لعله يجد الفتور أو اللا مبالاة أو الاستهانة أو الاستعداد للانصراف، وهذه كلها يقرأها رجال آخرون في وجوه النساء، ويعيشون بسببها في وجع مزمن.

المرأة العاقلة هي التي لا يفتش الرجل كيف يربطها، ولا كيف يغدق عليها كي يأمن منها أي درجة من درجات الاستهتار أو النفور، أو أي لمحة من لمحات الخيانة مهما كانت صغيرة تلك الخيانة، ولا كيف يبالغ في الحنان معها كي لا تجد حجةً للوقوع في أي زلل بحجة الإهمال، المرأة العاقلة الصالحة هي التي يعاملها زوجها بحنان واحتواء لأنها تستحق ذلك، لا لأنه يخاف عليها، وهذا من إكرام العقل والصلاح للمرأة.

المرأة التي تثير كامل طمأنينة الرجل هي شجرة عتيقة يعتز بها، وربما لا يتكلَّم عن هذا الاعتزاز أبدًا لكنه موجود، ولا يستطيع الرجل العيش إلا مع امرأة هو مطمئن لها، فإذا انخدش هذا الاطمئنان بأي شيء، مهما كان عابرًا، أخذ الرجل يذوب كالشمعة.

وهذه الطمأنة التي يمكن أن توفرها المرأة لزوجها، قد تأخذ الشكل الواضح المباشر بأن تقول له إنها تحبه، تحبه جدًّا، تحبه مهما حدث، أو بأي صيغة تناسب الحياة العاطفية بينهما، وبالطبع هي يمكن أن تختار الوقت اللطيف الذي ترى في عينيه أنه يحب أن يسمع منها ذلك ويتنعم به.

وعلى العموم فهناك مجموعة من التصرفات التي يمكن أن تصل بها رسالة المرأة العاطفية على مهل، يومًا بعد يوم، وقد يكون لدى المرأة قدر من العاطفة تجاه زوجها ولكنها توقفت عن إرسال بعض نوعيات الرسائل، بسبب انشغالها وهموم الحياة، وحتَّى إذا لم تجد المرأة في نفسها داعيًا إلى أن ترسل هذه الرسائل، بسبب أن عواطفها تجاهه قد انخفضت، فهي يمكن أن تقوم بهذا كله من باب الرعاية، أو تقوم بذلك اتقاءً لأن يتسع الخرق الذي في مشاعرهما.

ومن هذ الرسائل أن تستمر معه في حديث تحب فيه أن تسمعه وتحب فيه أن يسمع منها، وتبدأ الحديث وتنهيه من دون أي ذكر للالتزامات، ومخاوف الشهر القادم، حديث تبدأ فيه وتنهيه من دون أن تنهيه بأي طلبات من أي نوع، ومن دون أن تعاتبه على أي شيء حدث من قبل؛ هذه وصفة جيدة لامرأة لم تعتد على أن تختلي بزوجها ولا تطلب أي شيء، ويتطلب الأمر

منها أن تكرر هذه الوصفة، وهي لن تخسر شيئًا؛ ومنها أن تفاجئه بهدية لم يكن يتوقَّعها، هدية تعرف أنها ستعجبه، تقدمها وهي تبتسم، وتنهي هذه الجلسة من دون رفع أي طلب؛ ومنها أن يسمع منها مدحها له أمام المقربين، وتشهد له بالخير، وتذكر له موقفًا جيدًا لا تنساه له؛ ومنها أن توفر له تشجيعًا كافيًا فوق ما كان يتوقَّع في أثناء سعيه إلى تحقيق هدف من أهدافه، ومنها أن تشيد به في شيء يتقنه، بأن تقول له مثلًا أنت في الرياضيات لا يُعلى عليك، يحب البطل الذي في الرجل كل ذلك؛ ومنها أن تناديه بلفظ يعبِّر عن محبتها له، فإن صعب عليها ذلك نادته بما يعبر عن تقديرها له. هذه في النهاية مقترحات، وواقع الحياة داخل البيت قد يحرك ذوق المرأة لاختيار الأسلوب المناسب كي تثير طمأنينة زوجها إن شعرت بأن هذه الطمأنينة بحاجة إلى الإنعاش، لكن أيًّا ما كان ذوقها فإنها يجب أن تصنع شيئًا، لأنه يحق لمن يحتاج إلى الطمأنينة أن يوفرها له الطرف الآخر.

أما بخصوص اهتمامها بالبيت وما فيه ومن فيه، فهو واجب عليها، طبقًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (المرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها)، وهو لن يجدي كثيرًا في مجال إثارة الشعور بالطمأنينة لدى الرجل؛ ولا يليق بالمرأة الصالحة حتَّى إن تدهورت عاطفتها تجاه زوجها أن تهمله وتهمل طلباته وتهمل أمر طعامه وكسائه.

إذن يمكن التعبير عن الود والرحمة لغير غرض البوح، فهو أحيانًا ما يكون شبيهًا في عمله بأعمال الترميم التي يتم عملها لحائط حتَّى لا يقع، فكي لا ينهار بيت الزوجية يرمِّم كل منهما هذا البيت بلمسة من لمسات المودة، وبموقف من مواقف الرحمة؛ وربما تثاب المرأة عن ذلك بأكثر ممَّا تثاب لو دفعها الولع.

وليس الهدف الوحيد من تصنُّع الود بين الزوجين، وهو تصنُّع شريف، ترميم الحياة الزوجية ومنعها من الانهيار، وإثارة طمأنينة الرجل أو طمأنينة المرأة، ولكن أيضًا ألا أجعل ظهر شريك الحياة رجلًا كان أو امرأة للحائط ووجهه للشيطان، في معركة قد لا تكون متكافئة، يقول له الشيطان ما هذا الذي أنت فيه؟! ولا تسمع كلمة حلوة تبل حلقك؟! ولا تجد لفتة تجعلك تشعر بأهمية وجودك؟! هيا تعالَ معي وأنا بطريقتي أواسيك.

ولا يتوقف المأمول من تصنُّع الود إيقاف الأمور من أن تتدهور إلى الطلاق، وكذلك حماية نفس الشريك من الضعف الذي قد يستغله الشيطان، ولكن إن حسنت النوايا بين الاثنين، ربما

يحدث بعد مدَّة من الهدوء المصحوب بحسن الرفقة، أن ينظر أحدهما إلى الآخر وهو نائم بجانبه، ويكتشف أن بهذه النفس المرهقة من أثر الجفاء، ما يستحق أن يبقيها معه، وأن يبعث ندى عاطفته على أوراقها ذات فجر جديد، وأن يتمتع برؤية اهتزازها فرحًا في نسمة الحب والاعتذار.

تكلمت إذن عما يجب أن تقوم به المرأة وما يجب أن تحذر منه في أمر الحب والاستقرار، ويبقى على الرجل العاقل الكثير، يبقى عليه أن يتفهم أي مرحلة من مراحل الاكتئاب والحزن تمُرُّ بها امرأته وتؤثر على طريقتها المعتادة معه، فيذكِّر نفسه بأفضالها العاطفية الكثيرة عليه، ويصبر، ويتسع صدره، ويؤكد لها أنه معها ومتفهم تقلباتها، ويعذرها.

ويبقى كذلك على الرجل العاقل أن يقاوم أسوأ ما يمكن أن يصاب به رجل له زوجة محبة وفية رصينة هو مطمئن من ناحيتها تمامًا، من ناحية عاطفتها وأخلاقها وإخلاصها، وتسير أموره على نحو طيب جدًّا، البطل الحقيقي هنا في هذه الحالة هو من لا يقابل هذه النعمة العظيمة بالشعور بالملل، فبعض من يجدون مثل هذه الزوجة يملون منها ويزهدون فيها، وهذا من كفر النعم، وقد قال عمرو بن العاص رضى الله عنه: «لا أملُّ ثوبي ما وسعني، ولا أملُّ زوجتي ما أحسنت عشرتي، ولا أملُّ دابَّتي ما حَمَلَتْني؛ إنَّ الملال من سيئ الأخلاق».

البطل الذي تعتز به زوجته

نعود إلى البطل، حتَّى تعرف المرأة ما الذي يجب ألا يتعرَّض للقتل، ومن مصلحتها ألا تقتله، البطل أقصد به تلك النفسية التي يتمتع بها الرجل إذا كان يلمس بوضوح تام أن امرأته تحبه، وهي ليست تحبه فقط، ولكن تعتز به، أي يملأ عينيها، وتتمسك به لأنها تشعر أن وجوده يجعلها أقوى وأعز ممَّا لو يكن معها، وتشعر أنها متشرفة بأنه زوجها، وفيها نداء ما ينبع من روحها يقول هذا زوجي أنا.

وقد يصل إلى الرجل أن امرأته تحبه، ولكنه لا يستغنى عن أن يشعر بالإضافة إلى ذلك أنها تعتز به، وهو معنى يصعب على بعض النساء توصيله للرجل، ربما لأنه ليس مؤكدًا فيها مثل الحب، وربما لأنها تظن أن اعتزازها به والتعبير عن ذلك الاعتزاز يتعارضان مع اعتزازها بنفسه، وهذه الجملة الأخيرة ربما تشرح كيف يبدأ نشوز امرأة تبدو ذات خامة جيدة.

وهذا الحب الذي تكنه المرأة لزوجها وهذا الاعتزاز به يحركانها إلى أن تعامله بالقدر اللازم من الاحترام، وهذا الاحترام لا يحتاج إلى شرح كثير، ويحركانها أيضًا إلى أن ترغب في الشعور بأنهما على وفاق عام يهيمن على حياتهما معًا، لذا تبذل بحب واعتزاز ما يؤكد هذا الوفاق، وهو ما لا يعني كما يبدو للوهلة الأولى أنها ضعيفة تتحرَّك معه في الحياة بغير شخصية.

وهذه المرأة التي اجتمع فيها أنها تحب زوجها وتعتز بها وتحترمه وتتوافق معه، تلك النعم الأربع الغالية، هي تدور في مداره برضاها وتؤمن به ولا يعذبه إرضاؤها، وتثق في رأيه وفي الحلول التي يضعها، حتى لو لم تتفق معه في كل مرة، ولكنها تطمئن في العموم لتفكيره، وتنتبه إليه وهو يحاول أن يبين لها ما خفي عنها من أمور الحياة وأمور الناس، وتشعر بأنه يضيء لها بعض المساحات المعتمة، وتسعد به وبالحقائق التي بينها لها من وحي خبرته؛ وهي لا يدفعها إلى ذلك بالضرورة محدودية عالمها وضعف خبراتها وانخفاض ذكائها، لا، لكن الرضا الذي يغلبها ناحيته، وذلك الإعجاب الهادئ والمستديم، يجعلها تنحاز إلى اختيار الوفاق معه، وهذا الوفاق الذي يسود الحياة بينهما تغيب في ثناياه نقاط الاختلاف بينهما التي لا تخلو منها علاقة بين اثنين.

وهذا المستوى من الثقة بالنفس الذي تبثُّه في زوجها وهي تنصت إليه وتؤمن به وتميل إلى التوافق معه، يحرره من عنجهية الرجال، ويجعله يذكر بكل وضوح وفخر تلك المرات التي نفعه فيها رأيها ويشكرها على كل الأشياء التي تفهم فيها جيدًا، ويشكرها على المرات التي

أخرجت الأسرة فيها من ورطة، بل ويشكرها على هذا كله أمام الآخرين في غيابها، وهو ما لا يحب أن يعبِّر عنه رجل تحب امرأته أن تثبت أنها دائمًا على حق، وهذا ما يجب أن تستوعبه جيدًا أي امرأة تريد أن تسمع اعترافات زوجها بأفضالها عليه وتسمع اعترافات زوجها بمشورتها الفالحة: اجعليه كبيرًا عندك كي يتكلَّم عن فضلك من تلقاء نفسه، لو جعلتيه صغيرًا سيتهرب من الاعتراف بفضلك كما يتهرب الإنسان من ذكرياته المؤلمة.

هذا هو البطل، هو الذي لا يكابد من أجل الانسجام مع زوجته، فمجهوده كي ينسجما معًا كذلك المجهود الذي يبذله الإنسان بكرمٍ وهو يمارس أجمل هواياته؛ وقتل هذا البطل هو أن يعيش الرجل مع امرأة ليس الوفاق مع الزوج من أسمى أمنياتها ولا هو من طبيعتها الغالبة، فطلب الوفاق والحرص عليه هو أساسي في نفسية امرأة حسنة التبعُّل، وهناك امرأة شخصيتها قائمة على الموافقة مع الزوج، وهناك امرأة شخصيتها قائمة على المغالبة، لا الأولى توافق دائمًا -فلا تخلو حياتهما من بعض المنغصات- ولا الثانية تغالب الرجل دائمًا -فلا تخلو حياتهما من حنان ولمسات رقيقة وتعاطف متبادل- ولكن الفارق هو أن الأول مرتاح الأعصاب، وعلى وضعه في كابينة القيادة، فحتى في وقت الخلاف هو يعلم أنها حتمًا ستعود وتصبغ حياتهما معًا بصبغة الوفاق، مثلما كانت تدعوها فطرتها وطبيعتها دائمًا أو يدعوها خوفها من الله، أما الثاني فهو متوتر، ولا يكاد يضع جسمه على المقعد في كابينة القيادة، فحتَّى في وقت الرضا والانسجام، حتَّى في الوقت الذي هي فيه مختبئة في حضنه، هو يعلم أن هذه الذي تبدو الآن رقيقة مثل النسمة، ووديعة مثل الغزالة، ستتحوَّل، وتعود وتصبغ حياتهما معًا بصبغة الخلاف والتذمُّر.

والمرأة الموافقة هي الأكثر استعدادًا للتعامل مع زوج فيه اختلاف عنها في الطباع والعادات والخلفية الاجتماعية، وهي تحرص من تلقاء نفسها على أن تلحظ النقاط البسيطة التي من الممكن أن تسبب الانزعاج لزوجها، حتَّى ذلك الانزعاج الذي لن ينطق به، فتتجنب تلك النقاط قدر المستطاع، ويسهل عليها ذلك في أحيان كثيرة، فهي تكره أن يتضايق منها، وتحب أن تتفق معه، فلو قلنا إنها لاحظت أنه وحسب طباع أهله لم يتقبل دخولها صالون البيت للترحيب بأصدقائه بطريقة محترمة كربة منزل، وقد تربَّت في مناخ لا يجد مشكلة أبدًا في ذلك، فلن تفعل ذلك مرة أخرى، وبالنسبة إليها فإن الأمر بسيط جدًّا ولا يوجد فيه أي تضحية، فيبدو عليها في

نظر زوجها أنها تعتز به بالفعل وليس بالكلام، فمرونتها في التعامل مع طباعه تؤكد ذلك؛ والمرأة المغالبة هي التي تسير بطبعها كما هو إلى آخر مدى تستطيع الوصول إليه، وتقلل عدد الأمور التي تتجنبها من أجل زوجها، وتنسى بعض الأمور رغمًا عنها، وتحب أن تسمي كل هذا تلقائية ووضوحًا، وتعمل بقصد أو من دون قصد على أن يعمل الزوج على تطبيع نفسه مع تكوينها حتَّى يرتاحا معًا، لذا ستدخل الصالون للترحيب بضيوف زوجها بطريقة تناسب ربة منزل محترمة، كما كان الحال في بيوت عائلتها؛ وفي جميع الأحوال، ولو صار الزوج متقبلًا للأمر الذي تكرر، فإنه يستقر فيه بهدوء مع الأيام شعور بأنها لم تكن طوال هذا العمر من الحياة المشتركة تعتز به وبتوجهاته بالقدر الكافي، وأنها على مر السنين قد قلَّمت أظفاره حتَّى إنها أوشكت على الوصول إلى اللحم، وهو لم يستطع الاقتراب من أظفارها قط.

إذَنْ المرأة الموافقة لزوجها الذي تحبه وتعتز به هي التي تتغلب بعاطفتها على الاختلافات بينها وبينه، وهي التي تعرف كيف تصل مع الزوج رغم وجود الاختلاف إلى حالة حلوة، فإذا كان الاختلاف بينها وبينه هو مثل الحائط القبيح القديم الموجود في المدينة من قبل أن تكون مدينة، المدينة الجديدة هنا تمثل الزواج كحدث ناشئ، الحائط يمثل التناقضات المزعجة التي هي قديمة قدم تكوينهما، فهي المرأة التي تتفنن في رسم لوحة جميلة على هذا الحائط القديم تداري عدم انسجامه مع ما يحيط به، المرأة تستطيع ذلك أكثر من الرجل، إن أحبت الرجل واعتزت به، وإن كانت تتمتع بقدرٍ كافٍ من الذكاء العاطفي.

المرأة الموافقة هي التي تحب أن يتفقا معًا إلى أقصى درجة ممكنة في الآراء وفي العادات، وتتمتع بدرجة من الولاء والذكاء العاطفي اللذين يسمحان لها بأن تجعل زوجها يلحظ جيدًا اعتزازها به، وهذه امرأة مريحة للزوج، ولو اختلفت معه في ثلاثة أرباع ما تراءى له فإنه لن يشعر بذلك؛ والمرأة المغالبة هي التي تحب آراءها وعاداتها، ويظهر عليها ذلك بوضوح، ولا تتمتع بدرجة من الولاء والذكاء العاطفي اللذين يسمحان لها بأن تنقل لزوجها شعورًا واضحًا مؤكدًا بالاعتزاز به، وهذه امرأة متعبة للزوج، ولو اتفقت مع زوجها في ثلاثة أرباع ما تراءى له فإنه لن يشعر بذلك.

إذَنْ يمكن أن نقول إن المرأة عليها أن تختار الموافقة كأفضل الحلول لا المغالبة، الموافقة هنا كروحية وليس كرضوخ إنسانة ضعيفة، تختار الموافقة ما دام أنها تعيش مع إنسان طبيعي،

أن تدخل البيت وتعيش فيه وهي تنظر إلى نقاط الاتفاق بينها وبين زوجها وتفرح بها وتضخَّم حجمها، وفي ذات الوقت تستهين نوعًا ما بنقاط الاحتكاك والاختلاف، وترى أنهما في الجملة متفقان، لأن مرأة المغالبة على العكس من ذلك: تحدق إلى نقاط الاختلاف وتضخم فيها، وتستهين بنقاط الاتفاق ولو كانت غير قليلة، ممَّا يجعلها تشعر أنها وزوجها إنسانان غير متفاهمين، تشعر بهذا قبل أن يشعر به الرجل، ويثبت فيها هذا الشعور وتتصرَّف على أساسه، تخرج إلى زوجها كل يوم بعد أن باتت في عش هذا الشعور، تخرج إلى الزوج وهي متحاملة عليه، فيزيد الاختلاف بينهما، حتَّى يبدأ الرجل في مشاركتها الشعور بأنهما غير متفاهمين بالفعل.

واعتقاد بعض النساء أن المرأة التي بها روح المغالبة تتمكن من أن تأخذ من الرجل أكثر ممَّا تأخذ امرأة أخرى تتمتع بروح الموافقة، هو تعميم وهمي، فكثيرًا ما يعطي الرجل زوجته المتوافقة معه ومن دون أن تنتزع منه، ما تريد أو أكثر، كنوع من الشكر على حسن العشرة، وكثير ما يضبط الرجل الذي يعاني من مغالبة زوجته نفقاته عليها، لأن هذا هو السلاح الوحيد الذي يمكن أن يعكر به مزاجها، ولأنه يكره فيها أنه يشعر بأنها تحب الأشياء التي تأخذها منه أكثر ممَّا تحبه، فيقرر ألا يعطيها كل ما تحبه، أو لا يعطيها إياه بسهولة.

لكن على كل حال، ومن باب الأمانة، فإن الموافقة ليس رحمة في كل الأحوال ولا مع كل الرجال، فإن رزق الرجل أحيانًا يكون في امرأة طبيعتها المغالبة، امرأة تنظر عينها إلى ما يجب تصحيحه وما لا يعجبها، وهي لا تحب التغاضي عن العيوب، هذا إذا كان الرجل بحاجة في حياته إلى ما يشبه الصدمات الكهربائية التي تعيد النشاط والإفاقة، وقد يبدو سلوكها أنها تؤذي البطل في الرجل، ولكن وبسبب التحدي، وبسبب محاولة الرجل لإثبات نفسه أمام امرأة صعبة قد ضايقته بنقدها، قد يتغير الرجل إلى الأفضل، ويستطيع أن يعالج نفسه من عيوبه أو بعض عيوبه، ويُظهر البطل الذي فيه، ويلاحظ الناس نسخته الجديدة الأقوى والأكثر صلابة؛ إذَنْ يمكن أن يكون الرجل بحاجة ماسة إلى امرأة المغالبة، هى عربة الإسعاف التى أطلقها القدر إليه، فركنت عنده وحملته، لكن يبقى على هذه المرأة أن تستخدم المغالبة بنوع من الفن والدراية، تستخدم المغالبة بالقدر الذي لا يصعق الرجل ولا يدمر حياته، ويبقى عليها أن تتوسع في ذات الوقت في الموافقة قدر جهدها، وزيادة مساحة الترويح والبراءة، لأنه من الصعب

جدًّا على الرجل إلا إن كان شديد التصالح مع نفسه غاضبًا من عيوبه، أن يمتنَّ لامرأة سحلته وداست على مناطق وجعه بغير رحمة وبغير هدنة كي يقوم.

ويبقى على الرجل العاقل الناضج الكريم ألا يرجو من زوجته أن توافقه لدرجة أن تكون إنسانًا آخر تمامًا غير الذي اختاره بإرادته، ويبقى عليه أن يكون مرنًا بخصوص الأمور غير الضرورية، وأن يتقبل الجوائز التي جعلها الله له في زوجته بنفس راضية، وألا يطمع في الحصول على كل شيء، فأن يختار الرجل مثلًا شابة طبيبة مهذبة تهتم بالعلم والأبحاث، حتَّى ينجب منها أطفالًا تحسن العناية بتربيتهم، ويجدها جادة ناضجة عالية الهمة كما توقع، لكن يغضبه منها بعد الزواج أنها ليست مثل أمه وشقيقاته وخالاته وعماته اللائي يهتممن بالمواسم والزيارات والطلعات والنقوط والمجاملات ورد المجاملات وكل تلك الواجبات الاجتماعية، فهنا هو يطلب شيئًا عاشت الشابة حياة طويلة وهو لا يمثل لها أي شيء وليس من تفاصيل عالمها، والأولى به وقتها أن يتفهم طبيعتها ولا يركز في الأمر، ولا يعطيه أكبر من حجمه، وأن يفوِّت ملحوظات نساء العائلة عن (غشم) زوجته، فأعظم وأنبل مشاعر التوافق هو أن تتفهَّم بعض الاختلاف وتبتسم له، لا أن تزيله.

أعود وأقول إن قتل البطل هو أن تتعامل المرأة مع زوجها بغير اعتزاز، تتعامل معه على أنها قرأته من الجلدة إلى الجلدة ولم يعد بحاجة إلى نظرة مراجعة، تتعامل معه على أنها قد رفعت قياساته وعرفت أوله وآخره، ووقعت عيناها على مشكلات خامته، واستوعبت الأمور التي وقع منه التعرف عليها جيدًا في مسيرة الحياة، ومساحة الجهل التي عجز عن أن يغطيها، وعرفت النقاط العمياء التي عنده، والأمور التي يمكن أن يغلبه فيها الرجال الآخرون أو يتفوقون عليه فيها؛ لكن الموضوع لا يتوقف عند هذا الهضم للرجل، وهو ما قد يحدث مثله عند أي امرأة تحب زوجها وتعتز به وتطلب الوفاق معه وتعض على هذا الوفاق، لكن الفارق يبقى بين عين رحيمة وعين غير ذلك عند النظر في العيوب أو نقاط الاختلاف.

قتل هذا البطل ليس في أن ترى المرأة كل ذلك وتبتلعه وتحاول أن تتعامل مع الأمر بكياسة وقدر من التحيز، قتل هذا البطل أن ترى كل ذلك وتحدِّق إليه، بوعي طبيب يشخص وضع مرض، أو بوعي مدرِّس يقيم مستوى طالب، وهي بعد ذلك تظهر رؤيتها وتسمح لتصرفاتها أن تنطق بها، ولو بطريقة فيها بعض الاعتدال، وقد يعوقها ذلك عن التعبير عن بالغ الاحترام،

أو قد يعوقها عن التعبير عن القدر المطلوب من الاحترام، وقد قلنا من قبل أن الحب والاعتزاز يجب أن ينتج عنهما معاملة الزوج باحترام، وقلنا إن الاحترام لا يحتاج إلى الكثير من الشرح.

هناك نوع من النساء تفعل الواحدة منهن ذلك رغمًا عنها، يفلت منها الأمر في بعض الأوقات التي تفقد فيها هدوءها، وهناك نوع من النساء تفعل الواحدة منهن ذلك، أي تعبِّر عما فيها من ضجر من العيوب، بالقدر الذي تعلم أنه يكفي كي يصل إلى الزوج، ولكن في الوقت نفسه بالقدر الذي لا يجعله ينقلب عليها وتخسر رصيدها عنده، تفعل ذلك بأسلوب مدروس، فإذا عرفت أنه وصل من خلال رسائلها المتتالية في الأوقات المرحة والأوقات الجادة، وحدث أن الزوج استوعب الفكرة التي تحوم حولها الزوجة أو مجموعة الأفكار، وعرف تلك النقاط التي خيبت آمالها فيه، وحدث لدى الزوج نوع من الهم الراسخ الذي يستسلم له في الغالب، الهم من الشعور بأن زوجته فيها قدر من الامتعاض منه مخلوط بتلك المشاعر الطيبة التي توفرها العشرة، إذا عرفتْ ذلك توقفت عند ذلك الحد الذي يمرض البطل الذي في الزوج، وهذا ما يحدث في الغالب؛ وربما كما في بعض الحالات يغلبها التمادي، وتبدأ في إرسال رسائل أكثر سفورًا وقسوة، نعم، حتَّى يصل الأمر إلى المستوى الذي يشعر فيه الرجل بأنه الآن يتعرَّض للإساءة، وأن زوجته لم تعد تحترمه، أو كانت تخفي عدم احترامها وأظهرته، ويشعر بأنه لا يعرف في الحقيقة ما هي اللحظة التي انتهي عندها تعبيرها المقبول عن النقد واللوم والمؤاخذة كأي زوجة، وبدأ عندها بالضبط التطاول والاجتراء وقلة الاحترام، كأنه غفل وأفاق مرة واحدة على أنه يهان بشكل ما، يهان ولا يمكن تسمية ما يسمع وما يرى إلا أنه إهانة.

وفي هذه الحالة الأخيرة لا يعوِّل الرجل على الحب ودلائله المتنوعة في حياتهما، ويشعر أن الاحترام شديد الأهمية، لا يقل أهمية عن الحب نفسه، بل يزيد، ويبدأ في الظن بأن قلة احترام زوجته له قادها أو سيقودها في النهاية إلى أن تشعر أنها كانت تحبه لكنها لم تعد تحبه؛ وظنه هذا للأسف من الوارد أن يكون في محله، وصبره وقتها على التعبيرات التي تدل على عدم الاحترام مرة واثنتين وثلاثًا من باب الاحتواء وقدرة الرجال على السيطرة على مشاعرهم، قد يبعثر ما بقي فيها من محبة قديمة تجاهه، لأن منظره أمامها وهو صابر على عدم الاحترام يجعلها تراه بعين أخرى، ويعزز لديها أسوأ تصوراتها عنه ووساوسها بخصوصه، كشخص لم يكن قط جديرًا بحبها منذ البداية، إنه سيدفع وقتها ثمن صبره على طباعها!

وهذا الخطر الكبير الذي نتج عن إساءة المرأة إلى زوجها وقبول الزوج بأن لا يوقف المهزلة بشكل حاسم، قد يأتي مقرونًا بخطر آخر كبير أيضًا: فقد تقارنه من بعد تلك الساعة المشؤومة بأي إنسان آخر رصين تعامله باحترام، وتنسى أنه ليس من الصعب أن تعامل هذا الآخر باحترام قياسًا برجل تعيش معه بلا تكلف، وتستنتج في النهاية بعد شيء من التركيز في رصانة هذا الآخر وفرضه احترامه على الآخرين أن زوجها لا يتمتع بدرجة قوة الشخصية التي تروق لها، كتلك التي في هذا الرجل الذي تخاطبه بكل أدب وتقول له حضرتك وسعادتك وسيادتك، وتبدأ تلوم زوجها في خاطرها على أنه أوصلها إلى درجة أن تسيء إليه، وهو بالنسبة إليها وقتها هو وحده الملام، لأن الرجل الحقيقي هو الذي لا تجرؤ أصلًا زوجته على إهانته، مثل هذا الرجل الذي يقف أمامها؛ وهذا كله نابع من أن المرأة مهما كانت شديدة فلها ميل إلى أن تكون بحضرة رجل بطل موفور الكرامة واثق من نفسه؛ وهكذا نصل إلى واحدة من أخطر الطرق التي تعرض بها المرأة العفيفة نفسها للأذى والفتنة: أن تجترئ على كرامة زوجها، وأن تشاهده وهو يمتص غضبه على تطاولها عليه، فيكون العقاب الذي أنزلته بنفسها أن تكون معرضةً لأن يثير إعجابها أي رجل من حولها له كيان وهندام وحضور، حتَّى ولو كان ذلك الرجل يذوق في بيته من الكأس نفسها التي يذوق منها زوجها، وكم في الزوايا خبايا.

أن يظهر الرجل في المسح الذي قامت به زوجته لشخصيته على أنه متواضع الخامة هذا شيء مؤسف بالطبع، وفي بعض الحالات تكون هذه هي حصيلة الرجل بالفعل وللأسف، هذا حجمه من دون تزييف، ولم يحدث من المرأة إلا أنها عرفت الحجم الحقيقي، واطلعت على ذلك الضمور للبطل داخل الزوج، ولم تجعل الأمر يزداد سوءًا، أي ليس عليها وزر ما وجدت، فلا ترصَّدت لذلك البطل ولا هي من ناحية ثانية حاولت إنعاشه.

لكن في بعض الحالات يكون الأمر غير ذلك، وتكون المشكلة في قراءة المرأة المتعنتة لزوجها، حتَّى إن ذات الرجل، بنفس تفاصيله كلها، يمكن أن يكون مع امرأة بطلًا تحبه وتعتز به وتدور في فلكه وتؤمن به، ويمكن أن يكون مع امرأة أخرى ليس مكروهًا ولكنه شبيه عندها بالابن الذي بحاجة إلى وجود أمه بجانبه كي تكمل نقصه، وتعدل مساره كلما مال، أي أن ذلك البطل في رواية إحدى النساء، أن تفرق كلا منهما، وتزوج هو بأخرى، يتحوَّل إلى رجل مرفوع القياسات، يجهل أشياء ويغلبه الرجال في أشياء، ولديه مشكلات في الخامة انكشفت كلها، وهذا

يحدث كثيرًا في الحقيقة: رجل يترك امرأة تمنت له الرضا، وجعلته سيدًا في حياتها، ويتزوج بأخرى أعجبته فتفرض وصايتها الكاملة عليه، حتَّى إنه يمكن وهو يمشي معها في الطريق أن يرى ابنه من الأولى فلا يجرؤ أن يعبر له الطريق ويسلم عليه، ويقول الابن المراهق: أهذا أبي لا يملك الشجاعة لأن يناديني أو يعبر لي الطريق لأنه مع زوجته؟! وهذا قد حدث.

نعم، تكون المشكلة أحيانًا في شخصية المرأة واستعدادها العنيف لفرض النفوذ، ومن ثمَّ في القراءة نفسها، قراءة المرأة لزوجها، ممَّا قد يتسبب بدرجة من الإيذاء للبطل داخل الرجل، عندما يقع تحت تأثير هذه القراءة، ويرتبك بسببها. ويكفيك للتأكد من ذلك أن ترى نموذجيًّا عكسيًّا، وهذا قد حدث، أن ترى وجه رجل تعامله امرأته بالتعالي عليه وبالتأفف منه، ثمَّ ترى وجهه إن انفصل عنها وتزوج بأخرى رضيت به، هو ذات الوجه، ولكن البطل عندما انتعش داخله عندما صار بصحبة امرأة تعتز به، قد أنار وجهه، وأرخى الأسى الذي كان عالقًا على صفحة وجهه.

وأحد أسباب الخيانة، أحد الأسباب التي تدفع رجلًا ما إلى البحث عن امرأة أخرى، هو أنه يبحث عمن لها عين الرضا التي هي عن العيوب كليلة، يبحث عمن تنادي البطل الذي به، ذلك البطل الذي لا تغذيه امرأته، يبحث عمن تنادي البطل ولا تقيده بسلاسل تقييمها ونظراتها وقلة ميلها إلى الشكر والإطراء، البطل الذي يستحق أن يُعامل باحترام وإعزاز، البطل الذي هو جدير بأن يملأ عين امرأة، البطل الذي لا تجعله المرأة يفكر إن كانت لا تزال تحبه أم لا، فالمرأة تكفيه عناء هذا التفكير وتعالجه من هذا الهوان.

والنساء اللائي يقتربن من مشاعر رجل متزوج يعرفن ذلك جيدًا، ويفهمنه تمام الفهم، ويتعاملن مع البطل الذي بالرجل، يقمن بإيقاظه، ومداعبته، والوشوشة إليه، وإغرائه، والثأر له من كل الهزائم، كل هذا بسخاء أنثوي بالغ؛ أنا لا أحكي عن شيء غير معروف، أنا أحكي عن أسلوب تعرفه أي امرأة إذا كتبت عليها الظروف أن تستخدمه، ولكنها قد تنكر ذلك كله وتنكر ما يكون الرجل في أمسِّ الحاجة إليه إذا كان الرجل في بيتها، وبينها وبينه أولاد.

هل لاحظنا شيئًا مهمًّا؟

كرامة الرجل داخل البيت ضرورية جدًّا للاثنين، ليس للرجل وحده، وهي من أهم ما يجب الحفاظ عليه، أكثر من الأثاث بالتأكيد، وإذا وجهت الزوجة إلى كرامة الرجل ضربات هوجاء،

ضربات لا يستطيع الرجل التهرب من آلامها، ولو تحت ذريعة الغضب الأعمى، قد يؤدي هذا إلى أن يخرج كل منهما إلى العالم وهو غير محصَّن من الفتن بشكل كاف، لا أقول إنهما سيقعان في الآثام بالضرورة، كلا، ولكن أقول إنه من الأفضل ألا يصنع الإنسان لنفسه الظروف التي قد تدفعه في تجربة؛ ولو توقفت المرأة عند حد أن تقول في خاطرها عن رجل ما إن هذا الرجل حقًّا له شخصية قوية تروقني أكثر من زوجي، ولو توقف الرجل عند حد أن يقول في خاطره عن امرأة ما إن هذه المرأة لها شخصية أنثوية لطيفة تروقني أكثر من زوجتي، فهذا في حد ذاته مؤسف بما فيه الكفاية، لضمير كل منهما، إن كان هذا الضمير شديد اليقظة.

إذَنْ يمكن أن نقول إن السعادة في البيوت تتطلب من المرأة قدرًا من المحبة والاعتزاز، ونقل الشعور بالتقدير والاحترام، والاستماع إلى الرجل بطريقة توحي بقيمة ما يقول، وأن تفسر النقص الذي وجدته في زوجها بطريقة متعاطفة قدر المستطاع، مثلما تفسر النقص الذي تعرفه في نفسها بطريقة متعاطفة، وأن تتجنب ما تقع فيه بعض النساء، وهو إعادة فلترة الرجل وتحويله إلى نسخة كرتونية، وتعتمد المرأة عندما تفعل ذلك على إعادة تكوينه من خلال الصفات التي تحب أن تسخر منه في قرارة نفسها بسببها، حتَّى لو كانت صفات ليست خبيثة بطبيعتها، مثل أن تعيد المرأة تكوين زوجها بشكل كرتوني في ذهنها بسبب ميله الشديد إلى النظافة، أو ميل تلك المرأة إلى إعادة تكوين زوجها بشكل كرتوني في ذهنها بسبب حرصه على تمارين الصباح في صالة البيت في وقت مبكر، أو إعادة تكوين تلك لزوجها بشكل كرتوني بسبب اهتمامه بتربية الدجاج في سطح البيت وإطعامها وبالتفتيش عن بيضها بنفسه كل يوم ونزوله بالبيض مع خالص شعوره بالإنجاز، الأمر لا يتوقف على الصفات المقطوع بسلبيتها، أي شيء يمكن أن يتحوَّل إلى مدعاة للسخرية، ما دام أن هذه المرأة بطبيعتها لديها الميل الداخلي إلى إعادة رسم الرجال بطريقة مضحكة، وقد يكون هذا شيئًا في بعض الأحيان منقولًا عن الأم نفسها، وفي بعض الأحيان يكون بسبب أن هذه المرأة متطلبة وناشدة للكمال وليس من السهل عليها في العموم أن تشعر بالإعجاب تجاه أي شيء أو أي أحد، وفي بعض الأحيان يكون بسبب طبيعتها المرحة التي تجعلها ترى الجانب المضحك في كل من تحبهم.

هذا ما على المرأة، وبالطبع فإن الرجل العاقل يعلم أن عليه مسؤولية ما كي يعيش متمتعًا باعتزاز زوجته به، وأن هناك نقائص يجب أن يبتعد عنها، فمن السهل على امرأة أن تحب رجلًا

فيه عيوب شديدة، حتَّى لو كان يستغلها ماليًّا، أما الاعتزاز فهو شأن آخر، فعليه ألا يظهر أمامها إنسانًا كذابًا وثرثارًا يتكلَّم فيما لا يعنيه، وعليه ألا يظهر أمامها رجلًا يخوض في الأعراض ويتقبل أسوأ التهم في الآخرين بغير دليل، وألا يظهر أمامها خفيفًا يحاول التقرب من النساء، وألا يظهر أمامها ذليلًا أمام الرجال من أجل مصالحه، وألا يظهر أمامها رجلًا يتقبل المال الحرام.

وبالطبع فإن الرجل العاقل الذي ليس لديه استعداد للبطر والغرور هو الذي يتقبل من زوجته حبها واعتزازها بقبول حسن، ويحمد الله عليه، ولا ينتفخ، ولا يضلل نفسه، ولا يقابل ميلها إليه بالتجاهل والتدلل والإعراض والأنانية، بل يكرمها ويقربها، ويعطيها الفرصة للتعبير عما يمكن أن يشتغل عليه في نفسه وما يمكن أن يسعى إليه بخطى حثيثة، ولا ينظر إلى ملحوظاتها بشأنه على أنها جارحة له وتعبر عن كفرانها به، بل هي ملحوظات وزير مخلص لا شك في إخلاصه.

البطل الذي لا يعجز في أن يشرح لزوجته شيئًا

البطل الذي في الرجل هو الذي لا يعجز في أن يشرح لامرأته شيئًا، ولا يحمل هم ذلك، ولا يعجز في أن يوضح لها حقيقة أمر ما، ولا يصعب عليه توضيح ما يشعر به، ولا يرهقه طرح مبرراته ووجهات نظره، لأنها تحب أن تفهمه وتحب أن تصدقه ولا تحب أن يتعب في إقناعها، ومن أجل هذا هي تبدأ كلامها معه وهي منشرحة لأن تستوعب كل ما عنده، ومتقبلة لأن ترى من خلال بصيرته أشياء أخرى ربما تكون غائبة عنها، أو أشياء ربما يعطيها الرجال اهتمامًا آخر غير نظرة النساء إليها.

هذا البطل وحظه، وفي ذات الوقت فإن الزوجة ستتبرع بأن توضح له وجهة نظر النساء في مثل هذا الأمر الذي يتكلَّم عنه إن كانت المسألة تتطلب ذلك التوضيح؛ فمن الحظ السعيد في الزواج أن يسلِّم كل منهما بأن الثاني يمكن له أن يشعل له شمعة توضح له رؤية الجنس الآخر للأمور، تلك الرؤية الخافية عليه، تلك الرؤية التي هي ليست من صميم اهتمامه، وهو الزوج الناضج الواثق من نفسه سيعتبر هذا من أعمالها كوزيرة مخلصة له؛ ومن سوء الحظ أن لا يتفهم الرجل كيف ترى النساء الأمور وأن لا تتفهم المرأة كيف يرى الرجال الأمور بسبب الانسداد بينهما، فيتمسَّك كل منهما برؤية عالمه التي يعرفها، وهذا هو الضباب الذي يتخبط فيه زوجان يريدان الكلام معًا ولكن لا يفهمان الاختلاف الطبيعي بينهما، حينما تكون المرأة مصرة على أن الرجال أغبياء وعمليون ولا يعطون حجمًا لأشياء كثيرة وتقع منهم أشياء كثيرة، وحينما يكون الرجل مصرًّا على أن النساء غبيات وشكليَّات ويعطين حجمًا لأشياء لا تستحق الالتفات.

البطل لا يعجز في أن يشرح لامرأته شيئًا، لأن من حظه أن كانت فيها هذه الاستعدادات الطيبة، ولأنه من ناحيته لم يعوِّد نفسه على أن يبلع ما يريد قوله، ولا حتَّى تحت عنوان القلق من ضيق الشريك، فهو لا يسمح للاستياء بأن يتجمَّع فيه حتَّى يبعد قلبه عنها، مثلما هو الحال عند كثير من الرجال.

وحتَّى لو كانت هي التي جاءت تفاتحه في أمر تريد أن تتكلَّم معه فيه، جاءت وهي محملة ببعض الهواجس، فإنها تبدأ كلامها وهي تظن أنه سيوضح حقيقة ما تريد السؤال عنه، ويريحها من الأثقال التي جاءته به ويطمئنها، وهي تظن أنه يمتلك القدر الكافي من الثقة بالنفس وقوة الشخصية ما يجعله واضحًا مستقيمًا فلا يتهرَّب ولا يخترع الحجج ولا يستخف

بعقلها، ولا هي من ناحيتها تتصرَّف معه وكأنها تحاصره، بل هي فقط تسأله، وهي تريد أن تعلم منه هو كل الأمور التي تريد أن تقف على حقيقتها.

هذا حال البطل الذي من السهل عليه أن يتكلَّم مع امرأته، البطل الذي لا يخشى ممَّا سيكون بعد أن يدير مقبض باب الحوار، والعكس من ذلك كله هو حال الرجل الذي يتعب مع زوجته في شرح أشياء بسيطة، بسيطة إذا جاء يشرحها لولده منها الذي لم يصل إلى سن المراهقة، بسيطة لأمها، بسيطة لأي أحد، إلا هي، وبالرغم من ذلك فهي مع الآخرين غيره والأخريات تفهم ما يراد قوله من دون أي عسر.

المرأة من هذا النوع لا تحب أن تتفهم ما يقول زوجها بسهولة، ولا تعطيه روح الإنصات والاستعداد للتصديق كالتي تسمع بها من بقية المقربين منها كأمها وأبيها وصديقاتها، ولا تحب أن تساعده على أن يكون الاسترسال سهلًا له؛ وهو نفسه يتعجب من قدرة الآخرين على إقناعها، حتَّى أكثر صديقاتها ضحالةً وتفاهةً في الاهتمامات تؤثر على زوجته أكثر منه بفارق واضح، وهو لا يفهم أبدًا ما الذي يوجد في طبيعتها الأنثوية يجعلها ترى أنه من غير المناسب أن يكون سريع التأثير عليها.

ويظن النساء أن الرجال يحسدون بعضهم بعضًا على الزوجات الجميلات إذا اجتمعت الأسر بالمصادفة أو غير المصادفة في مكان ما، لذلك قد تشعر المرأة بالقلق والتهديد من امرأة أجمل منها بفارق واضح جمعتها بها جلسة مع الزوجين؛ وبالرغم من أن الرجال يؤكدون بغير حرج أنهم بصريون، وهم بصريون بالفعل، أو أكثرهم على هذا الحال ولا يخجلون منه، إلا أن أثر هذه الأمور هو أثر سطحي سريع الزوال، خاصة إذا كان يبدو على تلك الزوجة الجميلة الأخرى أنها من النوع غير السلس وغير الناعم نفسه، الذي يصعب على الزوج أن يتكلَّم معه بأريحية في أي شيء، النوع نفسه الذي يمكن أن يتغير وجهه في جلسة بسبب كلمة قالها الزوج في الأذن على شكل ملحوظة، النوع نفسه الذي عنده؛ لكن من الممكن أن يحزن الرجل على نفسه إذا كان في جلسة ووجد امرأة تسمع زوجها بأذنها وقلبها معًا، ويبدو عليها أنها تحب أن تفهمه، ويبدو عليه أن كلامه معها يريحه ويسعده ويغنيه، وسيزداد حزنًا إذا كانت جميلة لا يدفعها إلى كل ذلك رغبتها في أن تمتلك روحًا حلوة تعوض بها ما ينقصها من جاذبية الشكل.

العكس من حال البطل الذي من السهل عليه أن يتكلَّم مع امرأته، هو حال الرجل الذي يشعر أنه امرأته التي معه تقريبًا لم تسمع أي شيء ممَّا قاله وما حاول أن يفسره، إلا الأشياء التي قالها في وسط الكلام وضايقتها، ويمكن أن تنزعها من السياق وتترك الموضوع وتتكلَّم فيها، فلو كان يكلمها بلطف وجدية عن أنه من الأفضل قطع علاقتها بجارة يرتاب البعض في أمرها، وتدور حولها بعض الظنون التي يعلم الله إن كانت صحيحة أم غير ذلك، وقال إنه لا يهمه الحكم على المرأة ولا هو يطعن فيها ولكنه يحفظ عرض زوجته من القيل والقال، ثمَّ قال في وسط كلامه إنه يعلم أنها ربما لم تصعد لها من بعد آخر مرة حرقت فيها الطعام على النار، فإنها يمكن أن تحتج على أنه لا يزال يتذكر هذه المرة الوحيدة التي حرقت الطعام، وقبل أن يستوعب النقلة الغريبة تلومه لأنها يومها طلبت منه أن يأتي بوجبة معه ولكنه عاند، وما إن يشعر بالدوخة تلومه على أنه يكلمها كأنه يخاف أن تفسدها هذه المرأة بينما أخته المتزوجة تصاحب جارة لها من الشاكلة نفسها تقريبًا، فلا زوج أختك لام أختك، ولا أنت لمت أختك، أما فأنا فالحائط المائل؛ وقبل أن يستسلم تمامًا تلومه على أنه لم يستطع ليلتها شراء نوع جيد من زيت الطهي؛ حتَّى يندم على أنه انفرد بها وكلمها عن تلك الجارة، ولم يعد يمانع في استمرار تبادل الزيارات، لأنه لا يحب أن يتعرَّض لذلك التشتيت العقابي العجيب مرة ثانية، ثمَّ يفاجأ باليوم التالي، وبسلاسة شديدة، وكنتيجة لزيارة مباركة من صديقتها الأكثر ضحالة، التي لم تقل لها عن الجارة إلا كلمات قليلة: أنا غير مرتاحة لهذه السيدة، اقطعي معها؛ كنتيجة لهذه الزيارة وهذه الكلمات القليلة المباشرة جدًّا، قررت زوجته على الفور ألا ترد حتَّى السلام على الجارة، وهو لم يجرؤ حتَّى أن يطلب منها هذا المستوى من التخاصم، ويعيش الرجل هكذا وهو يحسد الأخريات العاديات تمامًا، على قدرتهن على التأثير أفضل منه بكثير على زوجته، بالإضافة لكونه يحسد أي رجل يميل على أذن امرأته ويقول شيئًا فتهز رأسها وتبتسم.

هذه النوعية من النساء ربما تكون ظريفة جدًّا ومرحة مع الزوج في أثناء حديثها الخفيف المرسل معه، أي أن الرجل يمكن أن يتمتع بالكلام معها في أي حوار لطيف عابر عن ملاحظتهما عن الناس وعن المواقف الطريفة، ولا يعتبر أن الكلام بينهما ثقيل على قلبه على الإطلاق، وربما تكون محبة له بدرجة واضحة، ولكنها من حساسيتها، وطبيعتها المتوترة، وعصبيتها، واعتزازها بنفسها، وخوفها المفرط على كرامتها، ووضعها الحدود لزوجها، يحدث

فيها انغلاقات إذا ما شعرت بأن الحديث على غير حديث الصفاء والأنس، عندما يكون مثلًا حديث توصية، أو حديث لوم، أو حديث مؤاخذة، أو حديث توجيه، أو حديث مساءلة، أو حديث للتأكد من حقيقة شيء ما، في كل هذه المواضيع التي لا تكون مثل كلام صاحبين، التي يبدو لها معها أنها تتعرَّض للتحقيق، تحدث فيها بشكل لا إرادي انغلاقات داخلية مفاجئة، مثل تلك التي يمكن أن تحدث في متحف يضم قطع ثمينة في حالة الطوارئ، إذا ما أتى الزائر بحركة مفاجئة مريبة: صفارات إنذار، كاميرات تتحرَّك، أبواب تغلق، زجاج مصفح ينبثق ويصعد من الأرضية، إضاءات متقطعة، مزاليج تنزل، مثل هذا التوتر والانتباه الشديد يحدث داخلها، كإنسانة تحرس كرامتها ضد أي عدوان محتمل، ممَّا يستحيل معه أن ينتهي أي حديث بينهما على غير طابع الصداقة على خير؛ حتَّى يجزم الرجل أن هذه المرأة تتحوَّل إذا ما مارس عليها أي دور من أدوار الرعاية، حتَّى ولو بألطف أسلوب ممكن، حتَّى يجزم الرجل بأن تكوينها النفسي يحول تمامًا بينها وبين أن تتقبل إرشاد زوجها، على الرغم من أنها تقول غير ذلك في أوقات المودة، لكنها لا تلتزم بما تظن أنها مستعدة له، حتَّى لو قدم لها الزوج رشوة أن يتقبل إرشادها حتَّى تكون المعاملة بالمثل، فإن المتحف ستنطلق فيه الصفارات، ولن يشعر أنها نفس التي يعرفها في الأوقات اللطيفة.

وقبل أن نتكلم عما يليق بالزوجة العاقلة فعله، وما يليق بالرجل والبطل الذي فيه، أحب أن أوضح أن معنى قدرة الرجل على شرح أي شيء لامرأته، وكذلك قدرة المرأة على شرح أي شيء لزوجها، تلك القدرة التي اعتبرتها نعمة هناك من البشر من هم محرومون منها، أحب أن أوضح أن هذا المعنى لا يشمل أن ينفرد الرجل بامرأته ويخرج فيها تحت ضغط الغضب أو تحت ضغط موقف معين، أسوأ آرائه فيها التي يحدِّث بها نفسه في ساعات الضيق، تلك الآراء النارية التي تخمد بعد قليل، ويعود الإنسان إلى أحكامه الأقرب إلى العدل، لا يوجد أي نعمة في أن تسيء لشريك الحياة وتحطم معنوياته وتقول له إنه غلطة العمر مثلًا، لا يوجد أي نعمة في أن تنتقد من يعيش معك بصورة هادمة كالتي ممكن أن ينتقده بها من يكرهونه ويتمنون له الانكسار، لأن الغرض الذي جعلت هذه القدرة من أجله نعمة، هو قدرة الكلام المحترم بين الاثنين على إزالة المخلفات النفسية من طريقهما بدلًا من أن تتراكم حتَّى تغلق الطريق، حتَّى لو كلفهما

الكلام في بعض الأحيان قدرًا معقولًا من الألم، إلا أن هذه تكلفة معقولة من أجل صيانة العلاقة من الانسداد.

الزوجة العاقلة إذن هي التي يسعدها ابتداءً أن يحدث اتفاق بينها وبين زوجها على بعض الأمور وبعض القضايا حينما يتكلَّمان معًا، وهي من أجل ذلك تحاول أن تفهم ما يقوله جيدًا ولا تتصوره على أسوأ صورة، ولا تأخذه على أسوأ محمل، وهي لا تفهم أن كثيرًا من التوافق يعني ضعفًا في شخصيتها، ولا تفهم أن بعض العتاب والتوجيه من زوجها يعني أن كرامتها قد انتهكت، وهي تستطيع أن تتحمَّل بعض الألم الناتج من بعض النقاشات، ليس لأن الرجل على حق دائمًا، ولكن أن تعرفي ما يضايقه ونطق به هو خير من أن يخفيه عنك ويكبر في جوفه.

الزوجة العاقلة الصالحة ليست كهذه التي تكلمنا عنها منذ قليل التي ندم زوجها على أن فاتحها في أمر الجارة، الزوجة الصالحة لا تجعل زوجها يندم على الكلام معها، وهي لا تجعله يفكر كثيرًا فيما إذا كان من المناسب أن يتكلَّم في أمر ما أم لا، وإن تكلم هل يقوله كما هو بداخله أم يخففه كثيرًا، ليس هذا فقط من باب إكرام الزوجة لزوجها، ولكن لأن أثر الكلام الذي يريد أن يقوله كل شريك للآخر ولكن لن يقوله، أنه يُختَزَن في جسد العلاقة بينهما، كما تختزن الأجساد الدهون، فيفاجآن بعد مدة، ومن كثرة الكلام الذي لم يقال، بأن علاقتهما ثقيلة مترهلة متقطعة الأنفاس.

وكذلك فإن الزوجة العاقلة الصالحة تفهم الاختلاف بين طرق التعبير عند الرجال ومثلها عند النساء، وتتقبل تعبير الرجال كما يليق بالرجال، وليس من أمنياتها ولا ممَّا يرضيها أن يشابه الرجال النساء في أساليب التحدث، هي تقبل وترضى بأن أسلوب زوجها في التحدث إليها ليس في نعومة حديث صاحبتها المقربة، وليس مغرقًا في الذوقيات، كذلك هي لا تمتعض من سرعة وصوله إلى الهدف من كلامه، ولا من ابتلاعه للتفاصيل، أنه رجل، يتحدث كرجل، ومن تريد أن تسمعه يجب أن تكون مستعدة للاستماع إلى رجل.

وهي يرضيها منه هذا القدر الرجالي من اللطف الذي يزين كلامه معها ويجعله مدهشًا طيب الوقع، ولا يرضيها أبدًا أن يفرط في اللطف ويبالغ فيه فيكون سخيفًا رخوًا، لا يرضيها أبدًا أن تشعر إن تكلمت معه أنها تكلم واحدة من صديقاتها.

الزوجة العاقلة أيضًا ليس عندها ضلالة أن الكلام مع الصديقات يغني عن الكلام مع الزوج، بل الكلام مع الزوج شديد الأهمية، ولو كان قليلًا، فالأمر لا يقاس بعدد ساعات الكلام، إنما يجدد الناس عهودهم حينما يتكلَّمون معًا، حتَّى لو تكلموا في أسعار الخضروات؛ والزوج وظيفته الإحاطة بالزوجة، وهذا يؤثر في كلامه معها، وهو يخاف عليها من أشياء ربما لا تخاف عليها منها كل الصديقات، إنه يحافظ عليها ويغار عليها، وهذه ليست الوظيفة الأولى للصديقة؛ ولكن كل هذا لا يعطي الزوج مبررًا في أن يكون زاهدًا في الكلام مع زوجته.

بعض النساء، وليس كل النساء، يعتدن على ما يمكن أن يحكينه لنساء مثلهن، ويحدث لهن برمجة، وينسين أن وقع ما يمكن أن يقال للصديقة أو الزميلة أو الجارة غير وقعه على الزوج، مثل أي حديث يثير الغيرة عند الرجل، فتتكلَّم مع الرجل بتلقائية قد تضايقه أحيانًا؛ والصحيح أن الزوجة العاقلة تراعي الطريقة التي تقول به شيئًا لزوجها، فنحن لا نفقد تلقائيتنا عندما نراعي مشاعر من نكلمه، نحن لا نفقد تلقائيتنا عندما نكلم الوالد بأسلوب غير الذي نكلم به أصحابنا حتَّى لو كان هناك صداقة بيننا وبين آبائنا.

من أجل هذا، وبغير أي تزويق، وحتَّى لو نشأت صداقة بين الرجل وامرأته، فإنه يمكن أن يستاء إن حكت الزوجة في أشياء لن تستاء منها الصديقة، يمكن أن يتكدر وجهه من حديث لو بدأت فيه مع صديقتها لجلبت اللب والسوداني وطلبت تفاصيل التفاصيل، مثل الحديث عن خطيب سابق لتلك الزوجة رأته في مناسبة وألقى عليها التحية، لأن الرجل سيعجز عن أن يكون مثل صديقة امرأته، ولو ضغطت المرأة على الرجل حتَّى تجعله في النهاية يتقبل منها أي حديث، من دون أن يبدو عليه أي قدر من التحفظ، لا على الوجه، ولا على النبرة، حتَّى وصلت إلى مبتغاها وفقد الرجل مشاعر الإحاطة ومشاعر المسؤولية، ستكون المرأة عندئذ ضحية عزيمتها، لأنها يمكن أن تغار من أي رجل مهيب حر بدا في أي جلسة أسرية أن زوجته تعمل حسابًا لخاطره وتعتز به، وستنظر إلى زوجها الذي عن يسارها، زوجها الذي روَّضته وخلعت أنيابه بعزيمتها القوية، وقتلت البطل فيه، على أنه كائن لزج ليس عنده أحاسيس الرجال الحقيقيين؛ هذا وعندما تميل المرأة الأخرى الرقيقة على زوجها تستأذن منه بكل لطف وبصوت خفيض كي تتمشى المرأتان معًا حول المكان، حتَّى الوصول إلى عربة الآيس كريم التي هناك، ستقوم هي من

جلستها وتميل على زوجها المغلوب على أمره بكل ثقل ظل وبتصنُّع لا يليق عليها، وتترقق وهي تستأذن مثل المرأة الرقيقة التي استأذنت، وربما حاولت أن تكون أكثر رقة منها وأكثر ودًّا.

ويبقى على الرجل الذي تصدقه زوجته، وتعطيه المجال لكي يقول كل ما فيه، ولا تحاصره بسوء ظنها، وتحاول أن تحافظ معه على حالة من الوفاق، أن يقابل ذلك بأن لا يكذب عليها أبدًا وألا يخفي عليها شيئًا يخص مصيرهما معًا، من حق مثل هذه المرأة ألا يكذب عليها زوجها مهما حدث، والبطل لا يكذب، والرائد لا يخدع أهله.

ويبقى على البطل ما هو أهم من ذلك، وهو ما يقع التقصير فيه من كثير من الأبطال وأنصاف الأبطال ومنعدمي البطولة: وهو رعاية الكلام مع الزوجات، في غير الأوقات التي يحتاج فيها الرجل إلى توضيح شيء معين أو التنبيه أو التحذير أو النصح أو التوجيه، أن يرعى الرجل الكلام مع الزوجة، ولو فعل ذلك يكون قد فعل الكثير في الحقيقة، الكلام عن أي شيء والسلام.

هناك شعور عظيم جدًّا ينمو عامًا بعد عام، بين الزوجين اللذين مرت بهما الأيام وقد اعتادا على الكلام معًا كل يوم، الكلام معًا عن أي شيء من أمور الحياة ولو كان بسيطًا جدًّا، أن يصير هذا الكلام متنفسًا من متنفسات الحياة الضاغطة، وأن يلذ لهما ذلك الاختلاف بين طريقة الجنسين في الحديث، يكون هذا الاختلاف مثيرًا لنوع من الألفة والتعاطف والإعزاز، أن يصير اتفاقها معه في الرأي راحة ويقين، وأن يصير اختلافها معه في الرأي اكتشاف وفرصة، وأن يصير عدم وصولهما إلى رأي إثارة، إثارة تسمح للحديث ببقية.

أن يتحدثا معًا كل يوم، تلك الأحاديث التي بها كل المشاعر الإنسانية المختلفة، ويتشرَّب كل منهما انفعالات الآخر يومًا بعد يوم، هذا يحقق شعورًا راسخًا وعميقًا لا يتحقق مثله بين زوجين صامتين معًا، حتَّى لو كان أحدهما تبرع للآخر بجزء من جسمه.

عدم الكلام بين الزوجين مصيبة، ليس أقل من مصيبة، لأنه يسمح لكل واحد منهما على انفراد، وبمعونة الوساوس، أن يُلبس شريكه ثوب التهمة الذي خيَّطه له وتفنَّن في أن يجعله مضبوطًا عليه، لكن الكلام، الكلام العادي جدًّا، يمكن أن يزيل ذلك القدر من التحامل الذي يكون فينا تجاه من لم نعد نسمعه.

على الزوجين أن يتكلَّما، أي كلام، حتَّى يفكك كل منهما روايته المتحيزة ضد الشريك، على الزوجين أن يتكلَّما حتَّى يفهم كل منهما من الصوت والنبرة دوافع الآخر وكيف كان يرى

الأمور، حتَّى يعود كل منهما محاميًا للآخر وليس قاضيًا يحكم عليه ويدينه، يتكلَّما معًا لأن الذي يبتعد كثيرًا سيجلس وحده في الظل وهو مقتنع تمامًا بأنه مظلوم مع شريكه، مهضوم الحقوق، ويتمتع بمواساة نفسه، وهو لا يعرف أن ما يعيش فيه على انفراد لا يخلو من أباطيل.

يجب أن يهتم الرجل بأن يعطي للكلام مع زوجته حجمًا كبيرًا، لأن هذه النقطة من أكبر وأشهر الإعاقات عند الرجال، والبطلان نوعان، نوع يهتم بالتصاق زوجته به، وهذا يحب الكلام مع زوجته، وليس عنده هذه الإعاقة، والنوع الآخر الذي يهتم بالإضافة التي قدمتها زوجته لحياته، وبحرص زوجته على رضاه، وهو في الغالب لا يحب الكلام مع زوجته مثل البطل الأول الذي يعيش في حالة عاطفية.

ومهما مكنت البطولة الرجل من حياة مستقرة، ومهما بدا البيت مرتبًا منظمًا نظيفًا، فإنه يجب أن يحفظ امرأته من عدم الترتيب الذي يمكن أن يحدث فيها بسبب الصمت الأسري الجليدي، يجب أن يكلم زوجته، ويتمرن على ذلك من جديد، ويتوقف عن الظن بأنه مسيطر ولا حاجة إليه إلى ذلك، فزوجته في حاجة شديدة للكلام معه، وهي إن لم تجد الكلام شعرت بأنها وقعت في فخ لن تفلت منه، نعم، عطش المرأة للكلام مع زوجها هو عطش بالغ السوء قد يؤدي إلى نتائج مرعبة من الناحية النفسية.

رغبة المرأة في الكلام مع زوجها، ولو في أمور هينة، هو نوع من التفريغ الضروري عندها، حيث تتحوَّل المشقات والأحمال التي تتعبها إلى هذا الحديث، إن ما فيها يخرج على شكل الكلام في أمور هينة بالنسبة إلى الرجل، لكنه تفريغ غاية في الضرورة، وكبت هذا الحديث اليومي البسيط، يصيب ذاتها بما يصيب المياه المختزنة الساكنة، فتتحوَّل من متحركة وقابلة لاحتضان الحياة فيها، إلى راكدة موبوءة.

ليس من الضروري على الإطلاق أن يكون الكلام عن شيء بالغ الأهمية، أو مهم نوعًا ما، لكن المطلوب هو أن يتكلَّما معًا، عن أي شيء مهما كان ساذجًا بريئًا سطحيًّا، ولو عن برامج التلفزيون، وأفعال الأطفال التي حدثت بالنهار، والمشاجرة التي حدثت في الشارع في المساء، وألا يعد عليها الأخطاء في مرحلة بداية الكلام، يتصرَّف بحب وحنان أب يشاهد طفله وهو يحاول أن يمشي، حتَّى تزداد ثقةً في نفسها وثقةً في زوجها، وتبدأ في اشتقاق كلامهما معًا بما يناسبها ويناسبه.

الذي يبقى ويقوي العلاقة، هو الاهتمام بين الوجهين، تلك الابتسامة التي تتولد على وجه الرجل وهي تبشره بأنها ستحكي له شيئًا طريفًا، وينار وجهه بالابتهاج قبل أن تصل هي إلى لحظة الذروة المضحكة، ذلك التأثر والغضب الذي يتسلل إلى ملامح وجهها وهو قد شرع في الإفضاء إليها بشيء ضايقه كثيرًا في العمل، فيمتلئ وجهها بالسخط على الشخص الذي أعاده إليها حزينًا هكذا وقبل أن تعلم من هو وماذا فعل، هذا هو ما أقصده بالاهتمام بين الوجهين، وهو حبل العلاقة المتين الذي لا يظن أغلب الناس أنه كذلك.

إن الذي ينمو بين الوجهين على مر السنين من مشاعر الاهتمام المختلفة في أثناء حديثهما، من تعاطف، وتشجيع، ومواساة، وتبسم، ورضا، هو مخزون عظيم يبقي فيهما ولا يعرفان عنه شيئًا، ويليق بالبطل ألا يحرم نفسه ويحرم زوجته من هذا المخزون.

سراج الجرو

(البطل الذي له إرادة كاملة)

منذ سنوات طويلة وجد طفل ما جروًا لطيفًا ممتلئ الجسد بالقرب من بيته، فرح به، وبنباحه البريء الذين يعلن به حبه للحياة، وأخذ يلاعبه، وينابيه باسمه الذي اختاره له، وتعلَّق به الجرو، وأخذ يلف حول ساقي صاحبه الجديد، وأخذ يتشمم فيه، والطفل كان منتشيًا غارقًا في شعور جديد عليه بالسعادة من كون هذا الجرو الصغير قد أحبه هكذا واختاره، ولا يعبأ بأحد غيره. ومن دون أي تفكير، ومن دون أي خطة، وبدافع من العاطفة القوية والحنان، وجد الطفل نفسه يحمل الجرو في حضنه، ويدق باب البيت.

دخل مبتسمًا حنونًا بما يحمل، يرجوهم أن يروه بنفسه عينه التي تراه، وتهتز قلوبهم ببراءته كما اهتز قلبه، لكنه فوجئ بأن أباه قد صاح فيه وأشار إليه كي يخرج به فورًا، واستمع الطفل لضحكات أمه وإخوته الكبار وأخواته، وهم يتعجبون ويضحكون من عشمه في أن يجد حلًا لإيواء الجرو عندهم، وأحد إخوته أخذ يذكره بأنه هو نفسه أحيانًا ما ينام على الأرض إذا بات عندهم ضيوف من البلد، فكيف يحلم بتدبير معيشة جروه هنا؟!

استدار بالجرو وهو يشعر شعورًا عميقًا محرجًا بحماقة أول اختيار له، وضعف قدرته على التبرير، وخرج به مهمومًا مشوش الأفكار والعواطف، مثقلًا بإحساس الهزيمة، وأطلق سراحه عند عتبة البيت وهو محرج منه.

بصرف النظر عن خاطر الطفل الذي انكسر، بصرف النظر عن وجهة نظر أهله، أقول إن داخل كل رجل هذا الطفل الصغير الذي أحب في يوم ما أن يعود إلى البيت بشيء ما أعجبه، الكلام عن أول مرة يجرب فيها الإنسان أن يختار شيئًا لوحده، ولا ينجح في أن يستميل إليه أحد على الإطلاق؛ الجرو هو اختيار الأغلبية من الصبيان، وبعضهم كانت شطحته أنه تمنى العودة بالحاوي نفسه!

لكن دعنا نفكر في الطفل والجرو، ما دام أنه ذوق الأغلبية: عندما يكبر هذا الطفل شيئًا فشيئًا، ستنحته التجارب واستعداداته الشخصية، وتطبخ تركيبته الأيام بوصفةٍ ما ومقادير ما، إلى أن ينضج ويأخذ قوامه النفسي الذي سيبقى به إلى الأبد في الغالب، ويكون رجلًا ما، إما أن يكون قد تخطى كل ذلك أو أغلبه، وصار يشعر بأنه الآن يمتلك القوة، للتفكير للسليم، وللاختيار الراشد، ولتحمل نتائج الاختيار مهما كانت، وصار يمتلك الإرادة التي يحاول بها أن يكون عنيدًا في وجع الصعاب، ولم يعد الطفل الذي فيه إلا ذكرى لطيفة تثير التبسم؛ أو على

العكس من ذلك يظل خائفًا من ضحالة تصوره للواقع وضعف قدرته على الاختيار الصحيح، وخائفًا من ضعف قدرته على حماية اختياراته، وخائفًا من تعلقه بأشياء لا يستطيع أن يفرضها على الآخرين، تمامًا مثل هذا الطفل الذي أطلق سراح الجرو وتراجع إلى الداخل كي لا يسمع نبرة الأسى في نباحه.

الرجال نوعان أساسيان إذن: نوع لديه إرادة واضحة لمقاتلة الظروف وللتغلب على المعوقات ولتحقيق ما يريد ولديه قوة على صنع الاختيار، يهزم الحياة مرة ومرة هي تهزمه ولكنه يكابر ولا يلقي سلاحه، والنوع الثاني يعاني من افتقاده للإرادة الكافية لكي يجد لنفسه مكانًا تحت الشمس، وليس لديه قوة على صنع الاختيار، وهو يفضل أن يتجنب أي مواجهة قدر الإمكان، وهذا وجدته امرأته مقتول البطولة جاهزًا، وهي غير متهمة فيه.

نعم، بعض هؤلاء الذين يحاولون التهرب من معارك الحياة قد سقطت إرادته وهو يضع الجرو على الأرض ويطلق سراحه، ولم تعد له إرادة كاملة من بعدها، بسبب عيوب واضحة في شخصيته وتأثيرات البيئة والظروف وأحداث الحياة، ولكن بعضهم كان يبشِّر بخير ولكن سقطت إرادته بعد الزواج؛ وهو لا يذكر متى حدث هذا على وجه التحديد، سقطت إرادته ولم يستطع أن يجدها، أو حتَّى إنه لم يحاول، صار لا يقوى على أن يفعل أي شيء من تلقاء نفسه، ويعيش في مدار امرأته وهي التي ترى وتفعل، وتتخذ عشرات من القرارات البسيطة دون الرجوع إليه، وتتخذ بعض القرارات التي على درجة من الأهمية، وتخبره بها بعد أن فكرت ودبرت وقررت، كي يكون على علم، ولكنه إن اتخذ قرارًا واحدًا بشكل منفرد، غضبت وشعرت بعدم التقدير؛ هذا كان لديه إرادة ما، وكان مستعدًا لأن يكون قائد للعربة في يوم ما، ولكن زوجته قتلت البطل الذي فيه.

وقد يكون ضعف شخصية الرجل هو السبب في أن تتوسع المساحة التي تحتلها زوجته بشكل مفرط، هذا من الوارد، ومن الوارد أيضًا أنه ليس ضعيف الشخصية، بل يتمتع بشخصية معقولة ولكن شخصيتها أشد من شخصيته، الجينات والظروف ونظرة كل واحد منهما لنفسه وللعالم فعلت ذلك، قوة العاطفة قد تفعل ذلك؛ ويمكن لضعف الشخصية ألا يكون هو السبب الوحيد، ولكنه السبب الذي يعطي ذريعة للمرأة بينها وبين نفسها على الأقل كي تقول: إنني احتللت مساحة لم يستطع هذا الزوج أن يمتد فيها، فهل أذنبت؟!

الذي سقطت إرادته بعد الزواج، قد يكون سبب هذا أن الحياة العملية وشعوره بالمسؤولية قد جعلا العمل يمتصه امتصاصًا كالبرتقالة ولا يبقي فيه شيئًا يذكر غير القشرة الخارجية، ممَّا جعله يتوسع في اعتبار أشياء كثيرة أشياء غير مهمة كي يتفرغ للدوران مع الساقية، وتركها هذه الأشياء لزوجته التي لديها طاقة ليست عنده؛ فنسبة ليست قليلة من الرجال في العالم أجمع يمكن اعتبارهم أشباه أسرى في الحياة العملية الشاقة، يعودون إلى بيوتهم بنفسية الأسير؛ وأسير العمل هذا الذي يمكن أن يعمل في وظيفتين، يفقد في الحقيقة جزءًا من شهيته للحياة، تروح الشهية وهي تحمل معها شيئًا من إرادته وشيئًا من إحساسه بالنفوذ حتَّى على ما يملك.

طبعًا في هذا المقام يجب أن نذكر بالخير الرجال المميزين محبي الحياة، وهم حجة على غيرهم، الرجال محبي الحياة الذي يدورون في الساقية، ولكنهم يولون أهمية كبرى لأسرهم، ولا يفقدون صلتهم بالواقع، ويحاولون الدخول للبيت بغير تلك النفسية المرهقة، ولا يحرمون أبناءهم من اللهو والبسمة.

الذي سقطت إرادته بعد الزوج، قد يكون سبب هذا أنه صاحب طبيعة هادئة أو باردة أو منضبط الطبع متحكم في انفعالاته، أو هكذا فعلت به الأيام وعلَّمته الحلْم وطول البال، فأفسح لزوجته كما يفسح الناس لأصحاب المزاج العصبي كي يقلل احتمالات الانفجار التي تهدد الحياة الزوجية، واشترى دماغه قدر الإمكان.

طبعًا في هذا المقام يجب أن نذكر بالخير الرجال المميزين الحازمين، وهم حجة على غيرهم، الرجال الحازمين الذين يتحكمون في أعصابهم ولكنهم لا يسمحون للزوجات بتخطي حدود معينة في التعامل معهم، ولا يعرضون أنفسهم للابتزاز العاطفي، ولا يعطون لزوجاتهم إشارة بأن صبرهم لا حدود له، فأسوأ ما يمكن أن يفعله الرجل بامرأته أن يعينها على التمادي، هي لن تغفر له أنها جعلها تتمادى.

وهذا التوسع قد يكون سببه الأقل انتشارًا هو أن الرجل لديه قضية تهمه، أو فن يرعاه يعتبره رسالة، أو موهبة تسيطر على قلبه، ونظر من برجه العاجي إلى تفاصيل الحياة العادية على أنها ستشغله عن فنه أو رسالته أو موهبته أو هوايته أو قضيته التي وهبها روحه، وترك لها هذا العالم البسيط من وجهة نظره، ثمَّ أفاق بعد أن وصل إلى منتصف العمر أو تخطاه أنه

لم يحقق شيئًا يتباهى به وتتباهى به زوجته، لا المال، ولا الشهرة، وأنه في الغالب لن يحقق، واكتشف أن التفاصيل التي اهتمت بها زوجته كنوع السيارة التي لديهم، وأقساط المدارس، والجمعيات، وكسوة الأبناء في الشتاء، وتطعيمات الأطفال، هي شديدة الأهمية في الحقيقة، هي كل الواقع الذي يحيط به، هي الواقع الذي تأخر عن الدراية به، وها هو لما عاد متأخرًا، صار مثل من انضم إلى صف دراسي به أطفال يصغرونه بسنوات، ولم يعد أمامه بعد تقصيره في حق حياة الأسرة إلا أن يتصرَّف مثل غريب مهذب، فهو طارد شغفه أكثر من أي شيء آخر، ولم يفعل مثل أغلب الرجال الذين طاردوا النقود قبل أي شيء، وهذا في عرف الأسرة ذنب عائلي عظيم.

طبعًا في هذا المقام يجب أن نذكر بالخير الرجال الواقعيين الذين لا يغلبهم هواهم، الذين يؤمنون بأنه لا يوجد شيء على الأرض يستحق أن يهملوا أبناءهم وزوجاتهم.

البطل الذي في الرجل إذن هو الذي هاجر بعيدًا عن نفسية ذلك الطفل الذي كان، وصار يشعر من دون ريبة بأنه إنسان كامل مستقل يليق به أن يكون صاحب مبادرة، ويليق به أن يتصرَّف بتلقائية إنسان حر غير واقع تحت السيطرة، وخطة حياته قائمة على الوعي بالفرص والمحاذير كما تظهر أمامه على خريطة الحياة بحجمها الحقيقي؛ أما عكسه فهو ذلك الرجل الذي يحاول قدر الإمكان ألا يفعل شيئًا مخالفًا للتوقعات، ألا يفعل شيئًا مخيبًا لظن الآخرين فيه، يحاول في جميع أموره، في البيت، وفي العمل، وفي الحياة الاجتماعية، وفي تعليقاته في الصفحات العامة في وسائل التواصل، أن لا يعطي أي فرصة لهجوم الآخرين عليه، يحاول ألا يدخل بالجرو.

عكس البطل هو ذلك الرجل الذي يجعل خطته كلها قائمة على أن يتفادى من زوجته اللوم والملاحظات والتأنيب والتصحيح، هو الرجل الذي تكبر الأشياء في عينيه وتصغر حسب رؤية زوجته، زوجته التي من أحد أهم نشاطاتها في الحياة تصحيح كل تصرفاته من أكثرها أهمية على الإطلاق، إلى التي لا أهمية لها، حتَّى طريقة رده على سلام حارس العمارة؛ وهو رغم أنه يحتك بتفاصيل الحياة، ويملك وعيًا وإرادة، ولا يفتقد للبصيرة والقدرة على الحكم على الأمور، إلا أنه قد أصابه عطب ما من كثرة تعرضه للتصحيح مثل كراسة تلميذ، وصار لا يجرب نفسه بدقات قلب طبيعية غير متسارعة، ولا يتصرَّف بوحي من رؤيته المستقلة؛ عكس البطل هو ذلك

الرجل الذي يعتقد بشكل حزين أن زوجته ورثت عن أفراد الأسرة القدامى حق التندر من اختياراته العجيبة، الذين رفضوا ربما أن يقدموا منحة من بعض الحليب لجروه وهو يحاول أن يقدم له أي شيء قبل أن يتخلى عنه.

والبطل الذي في الرجل هو الذي كان عازبًا يومًا ما يعتقد اعتقادًا راسخًا في حقه في الاختيار، فيما يخص أي شيء من اختيارات الحياة التي لها أثمان بسيطة أو غير ذلك، يؤمن برشده وأهليته الكاملة، ويؤمن بالحقوق والواجبات المترتبة على هذا الرشد، ثمَّ إنه بعد أن تزوج لم يشعر أن كيانه النفسي تزعزع، وأن شيئًا من الجبْن الغامض قد أصابه، وأنه تعرض لرجة قوية أحيت فيه الإخفاقات القديمة كلها. البطل إذن هو الذي لا يزال بعد الزواج يؤمن بحقه في الاختيار، وهو يختار وفيه درجة القلق المعقولة التي عند العقلاء الأسوياء إذا ما كان الأمر يستدعي نوعًا ما من القلق، لكنه لا يكون هشًا مذعورًا كل ما يدور بذهنه كيف سيحمل لها الأخبار السيئة إن جاءت الأخبار السيئة؟

البطل الذي فيه هو الذي يمكن أن يتخذ قرارًا جريئًا في إدارة أمواله، وبجانبه تلك الزوجة التي آمنت بعقله وخبرته، وهو يفعل ذلك مستندًا على وعيه وخبرته لا أوهامه في نفسه، وعكس البطل هو الرجل الذي إذا اختار أن يجرب مطعمًا جديدًا مع أسرته، فقط يجرب مطعمًا، واتضح أن الأكل دون المستوى، لم تفوّت زوجته هذه الفرصة ولو بطريقة ضاحكة للتعبير عن ضحالة اختياراته وسهولة التأثير عليه؛ هي تضحك وتتندر، وهو يحاول من جانبه أن يظهر كشخص يتمتع بسعة الصدر والروح الرياضية، هذا ما يظهر لها، بينما في داخله يرتد ذلك الطفل الذي يحمل الجرو ويخرج؛ ليس لأن امرأته تمازحه، فهذا مقبول بين الزوجين حسب الأجواء بينهما، ولكن لأنه يعرف أنها تريد أن تؤكد له من خلال المزح أنه لا يصلح لأن يختار شيئًا بمفرده، وأنه يجب أن يعتمد عليها ويتقبل ذلك، تقول ذلك بطريقة ظريفة حتَّى ينطلي الأمر عليه ولا يقاوم الفكرة دفاعًا عن نفسه وعن كرامته، ولو حدث ودافع عن نفسه اتهمته بالحساسية الزائدة وضعف الثقة في النفس.

وهذه المرأة يمكن أن تغلبها العاطفة بعد قطيعة قصيرة أو طويلة، فتصالح أي فرد من عائلتها دون أن تشرح لزوجها الأمر، وهو من ناحيته سيحمد لها هذه الخطوة، لكن على النقيض من ذلك هو لا يحق له أن تغلبه العاطفة ويصالح أحدًا من أسرته دون أن يعطيها

فكرة عن الأجواء والمساعي ويشرح لها الملابسات، ويرى هل تبارك هذه الخطوة أم تلعنها؛ وهي ستضع إطارًا عاطفيًّا وأخلاقيًّا تبرر به التدخل في البدء، عند أول مشكلة عائلية حدثت في تاريخ الزواج، فهي تتدخل لأنه طيب، ومتنازل عن حقه دائمًا، ولا يميز خبث الناس، وهو سيقبل هذا المديح، الذي هو يشبه تركيب اللجام لأول مرة وبهدوء وحنكة لهذا الحصان الذي لم يجرب ذلك من قبل، حسنًا، تم وضع اللجام بنجاح، وبعد أن يعتاد الزوج على التدخل من جانبها، تحت ذريعة حماية طيبته ونيته الحسنة، ستتدخل من بعد ذلك من دون أي تبرير عاطفي أو أخلاقي، سيفهم منها في البدء أنها تحميه، وتغار عليه، ثمَّ يرسو الأمر على أنها تفرض وصايتها بشكل صريح وتعتبره من مقتنياتها، ولا تحاول أن تطرح أي حجة أخلاقية، انتهت باقة: أنت الرجل الطيب، أنت الآن على نظام: أنت من ممتلكاتي الخاصة؛ أنت تحت الوصاية، افهمْ ذلك جيدًا.

البطل هو رجل لا تعتقد زوجته أنه داهية عصره بالضرورة، ولكنها تؤمن بأنه يمتلك القدر الكافي من سرعة البديهة، وقوة التفكير، ورجاحة العقل، وتؤمن بأن الحياة الهانئة هي الحياة مع رجل له رأي وتوجهات وشخصية، وليست الحياة الهانئة هي الحياة التي تختار تفاصيلها هي وحدها؛ وهي تعطي حيزًا معقولًا للمفاجآت البسيطة التي تتجدد معها الحياة، لذلك لا تنكد عليه لأنه اتخذ قرارًا بسيطًا بشكل منفرد ولا تشعر بأنه يهمشها بالضرورة.

البطل هو الرجل الذى يسعد ويشعر بقيمته لأن امرأته برفقته تشاهد اختياراته بقلب مطمئن، وتؤمن بأن هناك مجالًا للتجربة بجانبه، وتؤمن بأن الحياة تحلو لها وهي تجرب معه خطوات أولى لأول مرة في اتجاه معين، ويغلبها بجانبه الفضول للتعرف على الجديد معه، فهو الرجل الذي تتعرف على تعاريج الحياة وممراتها التي كانت خفية من خلاله؛ إذن هذه البطولة ليست شيئًا فقط يفيض من الرجل، بل شيئًا يفيض بين الرجل وامرأته عندما يشعر بإيمانها به، فتمنح المرأة إذن رجلها مزيدًا من البطولة على بطولته، وتتحوَّل البطولة بسعادتها به إلى أكثر من مجرد قدرة، بل تصير أيضًا متعة يتقاسمانها معًا.

وهذه المرأة المطمئنة بجوار زوجها الذي يؤمن بحقه في الاختيار، هي ليست ساذجة فارغة، بل هي قد تكون أكثر عمقًا من نساء كثيرات يغلبن رجالهن ويتصيدن لهم سوء الاختيارات، هي فقط تحترمه، وتؤمن برجاحة عقله في المجمل، وفي ذات الوقت هي تتفهم أن بعض

الاختيارات يمكن أن تكون غير موفقة، لكنها لن تعيد النظر إليه بنفس منزعجة لمجرد أن شيئًا ما لم يوفق في اختياره، فهي تؤمن بأن عدم التوفيق، مستوى الحضيض في عدم التوفيق، هو أن يكون زوجها الذي اختارته رجلًا يخاف من أن يجرب نفسه مثلما يفعل الرجال، هذا هو الحضيض بعينه وليس أن يقع ذات مرة في اختيار غير موفق.

المرأة العاقلة الصالحة هي حكيمة من ضمن القلة من الحكماء في حياة الرجل، هي حكيمة وليست متحكمة، حكيمة يضمن أنها لا تغشه ولا توردة المهالك، حكيمة الرجل الذي يتعلم منها حتَّى وهي تصمت، حكيمة حتَّى ولو لم تنطق بالحكمة، فليست كل الحكمة كلمات، بل الحكمة أيضًا وأهم من ذلك طريقة عيش المستقيمين، ونهيهم النفس عن الهوى، كانوا أفذاذًا، أو كانوا غاية في البساطة.

المرأة العاقلة الصالحة لا تؤمن بخطورة الرجل صاحب التفكير الحر المستقل، لا تؤمن بخطورة أن يكون الرجل قادرًا على اتخاذ القرارات، بل العكس من ذلك تؤمن بخطورة أن يعيش الرجل بنفسية شخص قاصر، ومخاوف شخص قاصر، ويتلفت حوله في تلك اللحظات التي تحتاج إلى قدر من المواجهة والمضي إلى الأمام، فالقاصر يعجز عن أن يصنع أي مواجهة بغير مباركة من شخص آخر يستمد منه الثقة في تصرفاته، وهي لا تحب أن ترى زوجها على هذا القدر من التخوف من الحياة.

المرأة العاقلة الصالحة لا تتقبل أبدًا على نفسها وعلى زوجها أن يلمح الآخرون من الأهل أو غير الأهل، إلى طيبة زوجها الزائدة، وسيطرتها على مقاليد الأمور، فما تبتسم الأخرى عند سماعه، عندما يقال لها إن عصاك شديدة، هو عند العاقلة ملاحظة مزعجة في غير محلها أبدًا، هي تخاف من ذلك خوف العاقلة من أن يقال عنها مترجلة.

وإيمان المرأة العاقلة الصالحة برشد زوجها وعقله، لا يمنعها من أن تؤدي النصح له بإخلاص، لا يمنعها من أن تراجع معه الحقائق قبل أن يندفع في طريق محفوف بالمخاطر ويدفع معه أسرته، لا يمنعها من أن تمنحه شيئًا من تريثها إن وجدت فيه اندفاعًا في طبيعته، ولا يمنعها من أن تمنحه شيئًا من حذرها إن وجدت فيه نوعًا من الاستهتار بردود فعل الآخرين، ولا يمنعها من أن تمنحه شيئًا من واقعيتها ومعرفتها بقدراتها وقدراته إن وجدت فيه قدرًا من الغرور والمبالغة في تقدير الذات، وهذا كله يعين عليه أن يكون الكلام سهلًا بينهما

والحديث من روتين حياتهما، فبالكلام بينها يمكن لكل منهما أن يجبر الكسور التي نتجت عن كلام قيل من قبل، بالكلام يجبر كسور الكلام، وبالكلام بينهما يمكن لكل منهما أن يجبر الكسور التي في شخص الآخر، يومًا بعد يوم، في عملية نحت بطيء، أما إن لم يكن هناك كلام بينهما، فإن كلا منهما لن يستطيع أن يغير شيئًا كثيرًا في نحت الآخر.

على المرأة أن تحافظ على البطل الذي في زوجها، بألا تعمل سواء بدافع الخوف أو غيره على تحطيم قدرات زوجها على اتخاذ قرارات هامة، لأن افتقاد الرجل للقدرة على اتخاذ قرار هام هو نقص خطير ومخيف وله آثار فادحة على حياته حتَّى الممات، بل يجب عليها أن تدعم هذه القدرة وتقويها بما تعرف وما تجيد، وبوقوفها عن يمينه بنفسية مخلصة، فهي تسمع منه جيدًا، وتستخدم معه طرح الحوار الهادئ، وتلقي له الضوء على المساحات المعتمة التي ربما لم يدقق فيها بشكل كافٍ، وتسأل معه عما يريد السؤال عنه، ولا تقترح عليه فجأة وفي أول الكلام أن يتوجه إلى فلان فهو أدرى منه، هكذا بهذه الطريقة العفوية التي تستخدمها امرأة تلقائية وهي لا تعرف أن هذه الطريقة المباشرة مؤذية للزوج ومضرة للبطل الذي فيه، بل تصل معه أولًا إلى قدر من الانبساط في الحديث، ثمَّ تشير إلى أنها لا تشك في أن لديه القدرة على أن يختار من يستشيرهم في أمره ليقوي رأيه بآرائهم لا لأنهم سيوجهونه، وتحول استشارته للآخرين من دليل على النقص إلى دليل على حسن استغلال الموارد الإنسانية المتاحة، لأن بعض الرجال لديهم حساسية شديدة من أن ترى زوجة الواحد فيهم نقصًا في فهم زوجها ورؤيته قياسًا لشخص آخر تقوم بتحديده، حتَّى لو كان أباه، ليس كل الرجال على هذه الدرجة من الحساسية، لكن يوجد رجال كثيرون يوجعهم ذلك.

أما إذا لم تجد المرأة ذلك البطل في زوجها الذي يقدر على اتخاذ القرارات، فإنها تستطيع أن تخلِّص الرجل إن أحبته وأخلصت إليه وإن كانت عاقلة، من كل آثار المعوقات القديمة التي تجعله لا يصدق نفسه، والتي تجعله يتردد ويصيبه الدوار إن فكَّر في أن يجرب قفزة الثقة التي يفعلها الآخرون عن يمينه وعن شماله بينما هو واقف لا يقدر على ذلك، تستطيع أن تنفض عن روحه غبار الهزائم الأولى التي جعلته يرجح في نفسه أن به ما يعوقه من أن يكون بطلًا حرًّا كالآخرين، بطلًا حرًّا شجاعًا لا يخشى اللوم بهذا القدر المخيف؛ نعم، المرأة تستطيع ذلك، هي التي يمكن أن تعطيه جرعة الثقة بالنفس التي يحتاج إليها، والتي لا يفكر أحد في إعطائها له،

هذا إذا تعاملت مع الجزء الماهر فيه، واعترفت به، وشجعت هذا الجزء الماهر على أن يتمدد داخل زوجها ويبسط نفوذه.

والرجل العاقل الذي يلاحظ أن زوجته تريد أن تخلصه من عقدة الطفل الذي أطلق سراح الجرو، وتحاول أن تنبهه إلى أنه صاحب أسرة تحتمي فيه ويجب أن يصدق نفسه، وله أن يجرب ويتشجَّع، وتفعل ذلك كله بقدر واضح من الحب والاحترام، يجب أن يعينها قدر جهده، لأنها ربما تكون آخر فرصة في حياته، يجب أن يعينها ويتعلم السباحة قبل أن يقفز قفزة الثقة، أي يحاول أن يبذل قدرًا من الشجاعة المطلوبة ولكن على أسس راسخة، حتَّى لا يخيب أمله في نفسه وأملها فيه، وهي مرة واحدة ينجح فيها ستغير وجهة نظره في نفسه إلى الأبد.

هذا ما يجب على من تبحث فيه زوجته عن البطل الذي تريده، أما من يعيش بالبطل الذي فيه، ذلك الرجل الذي يؤمن باستقلاليته وتؤمن زوجته بهذه الاستقلالية وهذه الأهلية لمواجهة الحياة، فعليه أن يستخدم هذه الروح عندها لصالح شعوره بالمسؤولية تجاه أسرته، ولصالح تحقيق أفضل فرص الحياة للأسرة، ولا يستخدم تلك الاستقلالية فقط لتلبية مزاجه الشخصي، ولا يستخدمها للتهرب من الواجبات المنوطة به، فليست البطولة والاستقلالية على سبيل المثال أن يكون الرجل مطلق اليد في تعاطي المخدرات مع أصدقائه داخل البيت، وأن لا تملك الزوجة أن تفتح فمها بأي اعتراض، ولا لها أن تذكره بخوفها على أطفالها من هذا الجو الموبوء، بل الذي يدعو أصحابه للتعاطي معه في بيته هو أقل بطولة من أصحابه الذين لا يقبلون أن يفعلوا هذا في بيوتهم، فالبطولة لا تأتي على حساب الالتزامات الأخلاقية والسمعة، وتلك البطولة التي يدعيها البعض من شعورهم بأنهم أقوى من غيرهم في مواضع الفساد والانحلال، هي بطولة جوفاء مزيفة.

والرجل العاقل من جانبه يتقبل فكرة أن الزوجة بدافع إخلاصها قد تشير له إلى سوء اختياره، مثلًا سوء اختياره لصاحب معين، يعطله أو يستغله أو يؤثر عليه تأثيرات سلبية، ولا يكون غرضها من ذلك أن تفرض الوصاية عليه، ولا يكون غرضها من ذلك أن تطفئ نار غيرتها من قرب الآخرين منه.

وسوء اختيار الصاحب قد يقع فيه العقلاء بدافع المحبة، فيقربون منهم إلى درجة كبيرة شخصًا هو غير جدير بهذا المستوى من الثقة. كل هذا لا يعني أن من ينبه الآخر هو أعقل منه

وأنضج منه، هذا ليس بالضرورة، فيمكن لأي إنسان مهما كان يبدو بسيطًا إنْ صاحب آخر أو رافقه، ومهما كان يبدو هذا الآخر عاقلًا وذكيًّا بل حتَّى لو كان عالمًا، يمكن أن ينبهه إلى ثغرة فيه يمر منها الآخرون بسهولة، إذن هي تشير إلى ذلك، تعطيه عود الثقاب الذي يمكن أن يرى في ضوئه ما لم يكن ينتبه إليه، ولا تلمح لزوجها بأنه مغفل أو ساذج، لأنه وقتها سيحاول بشتى الطرق أن يثبت أن صديقه فوق الشبهات كي يدافع عن نفسه ضد تصورات زوجته المهينة، ويثبت لها أن العيب فيها وأنها سيئة الظن ومريضة بالوسوسة. كل ما تفعله أن تشعل عود الثقاب وتجعله يبدأ في الرؤية والملاحظة والحكم بنفسه، وتشير إلى أن الأمر يعود إلى جودة معدنه، وكرمه، وعينه التي يغضها عن عيب من يحب، وليس لأنه ناقص الأهلية كما تحاول امرأة سيئة الطباع أن تلمّح.

والرجل العاقل من جانبه الذي آمنت زوجته بحقه في الاختيار لا يتعنت في ذلك في الأمور التي ليس له فيها ذوق واضح ولا تهمه كثيرًا ولا يتعنت في ذلك في الأمور التي هي من عالم امرأته ومن صميم اهتماماتها، فهو يؤمن بأنه اختارها هي كزوجة، وبالتالي اختار مواهبها، واختار ملكاتها، وله أن يستفيد من قدرات زوجته، ولا يتعامل مع هذه القدرات التي تميزها كأمر محبط ومستفز، بل ينعم بما تفهم فيه، وكذلك ينعم من الناحية العاطفية بالأشياء التي أحبت أن تختارها، لأن من ضمن اختياراته مع زوجة محبة، من أول اختياراته، أن يدخل السرور على قلبها.

البطل الذي لا تضعه زوجته في وضع المقارنة

لا يزال يذكر تلك الساعة التي لم يستطع أن يتخطى آلامها قط، ذلك الشاب الذي كان يعيش في ظروف أكثر من جيدة في الحقيقة، ولكن مرت عليه سنة شديدة أكلت الأخضر واليابس، وجعلته على حافة الإفلاس، وكان طوال تلك السنة لا يحب أن ينظر إلى نفسه في المرآة، من شدَّة التغيرات التي رسم بها البؤس وجهه، حقًّا كادت هذه السنة أن تقتله. كان كثير التفكير وقتها في طريقة يتخلص بها من الكابوس الذي يعيش فيه، ودائم البحث عن أي مخرج وأي بارقة أمل، لأنه لا يصدق أن هذه الظروف الجديدة هي التي سيعيش فيها إلى النهاية، وفوق ذلك كله لديه شعور قوي بالحرج من زوجته التي يحبها، والتي لم تره بهذا القدر من الاكتئاب وقلة الحيلة واضطراب التفكير، ولم يرها هو من قبل طويلة الصمت هكذا؛ وكل ما يريده منها أن تربت عليه، وأن تبعث التفاؤل في نفسه، ولكنه كان يرى في عينيها غير ذلك، وهو يتمنى لو أنها تكلمت وأثبتت له أن هذا التمرد الذي يتوقَّعه فيها مجرد أوهام.

في تلك الساعة الصعبة كانت في المطبخ، ترد عليه بتثاقلٍ مِن هناك، وكان لا يعرف على وجه الحقيقة إن كانت قد كرهته، أم كرهت العيش معه، أم حزينة ذلك الحزن الذي يجعلها عاجزة عن أن تبشره بالفرج وتقوي قلبه، وهو يريد أن يسمع منها أي كلام يطيب خاطره، ولو على سبيل المجاملة؛ وعندما طلب منها أن تأتي وتتكلَّم معه في أي شيء تحب أن تتكلَّم فيه، فقط تتحدث إليه، فوجئ بها تخرج إليه، بهدوء إنسان يكاد يتفجر من السخط المكتوم فيه، بهدوء إنسان يعرف أنه سيجهز على من هو أمامه، وقالت: حسنًا، إليك ما أريد أن ألفت نظرك إليه وأنت غارق في همومك.

وفي خلال خمس عشرة دقيقة، وبلا أي لحظة انقطاع واحدة، وبتفكير مرتب بطريقة مخيفة، وأفكار محفوظة كأنها قد راجعتها مائة مرة بالليل والنهار، وبعد أن بدأت كلامها بالبكاء على أطلال زمنهم الجميل، وكيف كنا، أخذت تحكي له أخبار الآخرين الجميلة، وكأن العالم كله قرر أن يستفزه ويثير حزنه على نفسه ويخرج له لسانه، فهذا زوج أخته الشاطر الذكي الذي يعرف كيف يدبر أموره، اشترى قطعة أرض يؤمن بها مستقبل أولاده، أما نحن فلنا الله، أختك لم تخبرك، ربما خوفًا على مشاعرك، وربما خوفًا من الحسد، لا أعلم في الحقيقة؛ وهذا شقيقها الأنيق المترفع الذي أخذ أولاده إلى أرقى قرى الساحل الشمالي، ونشروا صورهم التي تدل على الدلال والنعمة، بينما هم الآن غير قادرين على الذهاب إلى أي مصيف، وآخرها معه هو أن يطلا

على نهر النيل معًا مثل أي حبيبين مفلسين لا يزالان في سنين الدراسة، وعن ابن الجيران الشاب الذي هو أصغر منه بست سنوات، الذي كان يمكنه أن يرسله منذ سنين قليلة ليشتري له أي شيء من البقالة القريبة، اشترى سيارة حديثة بالتقسيط، ويخرج الصبح وهو يضع نظارته الشمسية أعلى رأسه مرتديًا بذلته الأنيقة وقهوته في يده، متوجهًا إلى عمله في الشركة الدولية، بينما ها هي سيارتهم القديمة تخرج من عند الحرفيين لتعود إلى الحرفيين في أقرب فرصة؛ وجرِّب أن تلقي عليه السلام وانظر في ثقته في نفسه وهو يرد عليك سلامك، وعن الجار المحامي الأنيق المعتز بذاته، الذي يبدو أن لديه الآن عملاء من مستوى ثقيل، الذي لا يخرج الآن إلا بأرقى الملابس ويضع أثمن العطور فيحترمه الجميع ويرغبون في التقرب منه، بينما هو قد صار مهملًا في نفسه وشبيهًا بالمساكين؛ كل الناس قد تحركوا إلى الأمام وتركوك، فهل تريد المزيد من الكلام والأخبار؟

كانت هذه الدقائق من أصعب ما عاش في حياته، ربما أصعب من أخبار السوق الذي خانه، وأصعب من المرات التي باع فيها أشياء ثمينة على وجه السرعة كي لا يغرق في الديون والمطالبات، شعر فيها كما لو أن نوعًا من الحامض الثقيل قد انسكب في جوفه وأخذ يتغذى عليه من الداخل، ولأول مرة يرى نفسه من خلال نظرتها كسيحًا هكذا، وضعيفًا، وكئيبًا، ومملًا، ولأول مرة يشعر بأنه ساخط حقًّا على نصيبه، بعد أن أعدت له سكين المقارنة، وخرجت من المطبخ لتذبحه بها.

شعر بشكل واضح أنها مجترئة عليه جدًّا، وأنه صار لا يملأ عينيها، وقد كانت تلك أول مرة يذوق فيها هذا الشعور المهين، لكنه لم يفكر رغم النار التي فيه في أن ينفجر فيها، لأنه كان خائفًا من المزيد من الانهيار في حياته، خائفًا من أن يقال إن الدنيا قد اكتمل انهيارها فوقه.

في هذه الدقائق كان من الواضح جدًّا أنها ضحية التفكير الدائم في حال الأسرة مقارنة بالآخرين، واجتذبت حسرتها كل أخبارهم الطيبة بشكل عجيب، وكان من الواضح أنها نسيت لزوجها كل اللحظات الجميلة، وكيف كان يفضلها على نفسه، وكيف كان يعطيها كل ما تحب من قبل أن تطلب. وانتهت هذه الدقائق الصعبة بأن دخل إلى الشرفة كي يداري دموعه عنها، وقد مر عليه فيها، ولثوانٍ معدودة، خاطر يقول له إنه لا خلاص من ذلك إلا بأن يلقي بنفسه إلى الشارع، لكنه تذكر الله وطلب عونه، وانثالت دموعه.

عندما تحسنت ظروف الأسرة من بعد ذلك، وعاد الاخضرار يغطي حياتهم التي تصحرت في ذلك العام، وعوضهم الله عن كل ما خسروه، وعادت البهجة إلى وجهها، وصارت ترد عليه من المطبخ بصوت رائق جميل، كان لا يزال يعاني فقط من شيء واحد لم يستطع أن يعالجه: وهو أنه كلما ضحكا معًا، وعيناه في عينيها، جاءت له في ذيل الضحكات صورتها وهي خارجة من المطبخ تخرج له من جوفها حمم المقارنة القاتلة؛ هي تظن أنه تخطى ما كان منها بسعة صدر رجل عاقل طيب، لكنه رغمًا عنه كان فيه شيء يتألم كلما ضحكا معًا.

لقد استعاد الرجل حياته المستقرة، واشترى سيارة جديدة، واشترى ذهبًا لامرأته، ولم يعد ينزل من بيته إلا بالملابس التي ترضيها وتجعلها فخورة به وبأناقته؛ كان محظوظًا جدًّا في السرعة التي رمم بها حياته، وعاد بطلًا بقوة الظروف، بطلًا لا يزال فيه شيء ينزف.

البطل الذي في الزوج إذن هو ذلك الذي لا يذوق ما ذاق هذا الرجل، هو ذلك الآمن من أن يوضع في وضع مقارنة، فالمقارنة عذاب الرجال، عذاب البطل الذي فيهم. البطل هو الذي لا يسمع من امرأته مقارنة له برجال آخرين تجرحه وتهينه، سواء فيما يخص الثراء أو المكانة أو الوسامة أو الأناقة أو اللباقة أو الذكاء، وهو لا يرى مقارنة تكاد تنطق بها عيناها، وهذا لا يرجع إلى كونها غبية وضعيفة الملاحظة أو ضعيفة الشخصية، ولا لكونه قد نجح في عزلها عن الواقع، ولا يرجع بالضرورة إلى مكامن القوة الباقية فيه، ولكن لأنها تؤمن بقوة العلاقة الزوجية نفسها وسموها، ولكونها تؤمن بأن المرأة المتزوجة لا يليق بها أن تفتح باب التلفت والمفاضلة، فقد ارتضت بزوجها رجلًا يحيط بعاطفتها وكفى، من وظائفه الأولى أن يحميها من الابتذال والتخبط العاطفي، وأيضًا لكونها ومن قوة دفاعها كامرأة مخلصة عن زوجها داخل نفسها، تجد نفسها تذكر نقطة قوته التي يتفوق بها على الإنسان الذي يمكن أن يكون أمام زوجها في وضع مقارنة، ذلك لأنها منه، وتعامله على نفس مستوى تحيز الإنسان لنفسه، ففيها تلك المخلصة نفس روح الطفلة التي يمكن أن تضع يديها الاثنتين على وسطها وتقول عن أبيها عندما يتناقش الأطفال عن الأب الأعظم بين آبائهم: لا أحد أحسن من أبي؛ هي فيها مثل هذا الولاء تجاه زوجها، وخاصةً إذا كان يستحق.

وعلى النقيض من ذلك البطل، يعاني بعض الرجال من التغير البادي على نسائهم فور الاطلاع على ظروف أفضل تعيش فيها الصديقات مع رجال يتمتعن ببعض المزايا، مثل تلك

التي تكلمنا عنها، فالواحدة منهن تنكد على زوجها لأن هناك رجلًا ما أفضل منه، في الأناقة، أو الثقة بالنفس ولغة الجسد، أو في سخائه البالغ في النزهات الأسرية، أو أي شيء، هي في الغالب لن تعبر عن ذلك بشكل صريح، ولكن الثورة الداخلية التي تحت عنوان: ميل البخت، تطفح في عينيها ونبرة صوتها وتغير مزاجها، هذا كله رغم أن المرأة لا تتزوج الرجل على شرط أن لا يعكِّر صفوها ظهور رجل فيه ميزة ليست فيه، لأن هذا نوع من التهديد سيفشل فيه أي رجل في الغالب، فحتى لو كان وسيمًا ممشوق القوام خطفها من أول نظرة، فإن هذا عرضة للتغيير بعد سنوات قليلة. هذا ويحدث في بعض الأحيان أن تقول المرأة لصديقتها مع التكتم على الحسرة: زوجك أكثر أناقة من زوجي، أو معتدل العود عنه، وفي أحيان أخرى أكثر ندرةً وغرابةً تصل بالمرأة الجرأة إلى أن تعبر عن حسرتها على بختها بأن تقول للرجل الآخر، وهذا ليس على سبيل المعاكسة بالضرورة ولكن على سبيل التنفيس: هل تعرف أن لغة جسدك في أثناء الكلام أفضل كثيرًا من زوجي؟ يا ليتك تعلمه كيف يجذب الناس في أثناء الكلام مثلك.

ومن الجدير بالقول أن بعض الرجال تنتهي حياتهم العاطفية تمامًا عند أول مقارنة قاسية وسليطة يتعرَّضون لها من الزوجات، وخاصة تلك المقارنة التي تتعلق بالشكل أو الأناقة أو اعتدال العود وكل ما يمكن أن يندرج تحت عنوان الجاذبية الشخصية، ولا يعودون من بعدها كما كانوا، ويحاولون تخطي ما سمعوه الذي ضرب مهجة القلب، ولكن يحدث أن يعجزوا عن تخطيه، ويكون الأمر بالنسبة إليهم مثل لغم انفجر في الواحد منهم ولم ينجُ منه، نعم، إن بعض ما تتفوه به بعض النساء على سبيل المقارنة الصريحة التي تعبر عن غضب داخلي وجحود بالغ، يصيب الرجل في مقتل، ويعيش بعاهة نفسية، بعضهم ينكسر ويمضي في الحياة بهذه العاهة، وبعضهم يتمرد وينتقم عن طريق علاقة عاطفية مع امرأة متزوجة، لأن هذا يعني أن هناك امرأة ما قد فضلته على رجل آخر، ليس بمجرد كلمات قيلت في أثناء الغضب، ولكن من خلال علاقة تؤكد أنه أفضل من رجل ما، وتظهر امرأته التي اختارها وكدح من أجلها في مخيلته كنموذج للجحود ومقابلة الإحسان بالإساءة، وعلى النقيض من ذلك تظهر الأخرى له كامرأة تعرض نفسها للخطر من أجله، تظهر كنموذج للتضحية والعطاء والتقدير، رغم أنها في الحقيقة أسوأ من زوجته على المسطرة نفسها، مسطرة تقدير المرأة لزوجها وغض بصرها عن غيره.

وموضوع مقارنة الزوج بالرجال الآخرين الأكثر وسامة أو جاذبية أو رشاقة أو أناقة، قد ذهب في هذا العصر بالأزواج إلى منافسة غير متكافئة تمامًا مع رجال يتمتعون بالوسامة الشديدة والأناقة يظهرون في المسلسلات التي تركز على الجماليات في الملامح والملابس والديكورات والمناظر الطبيعية، وكذلك في مقاطع التيك توك التي ينزل بها رجال يسوِّقون ملامحهم ليس إلا ولا يشاهدها إلا النساء ولا يعلق عليها إلا النساء المغرمات، وجميع المصادر التي يمكن أن تعرض رجالًا زيَّنتهم ملامحهم وزيَّنتهم الفلاتر وزينهم الترف البالغ؛ وهذه منافسة لم يتعرَّض لها أي جيل من أجيال الرجال. ورغم أن الزوجة قد تنظر إلى الأمر في الغالب على أنه وسيلة تسلية تافهة وآمنة في أوقات الفراغ الطويلة، إلا أن الزوجة إذا ما عرَّضت نفسها لمشاهدات كثيفة بشكل دؤوب، تحت دعوى أن هذا شيء غير مخجل فهي تنظر إلى رجال وسيمين لا يرون نظراتها المطولة إليهم، ربما يكون نتيجة ذلك أن يقل زوجها في نظرها قياسًا بهؤلاء المميزين الذين يوجد القليل من أمثالهم على أرض الواقع، هذا لا يحدث بالضرورة ولكنه قد يحدث، وإن حدث فهو يفسد حياتها وينزل برضاها. وربما في بعض الحالات يصل بالزوجة الأمر إلى درجة من الفتنة والتشوش وأن تعتاد عيناها على إدامة النظر في الوجوه الجميلة للرجال أينما ظهروا أمامها بعد أن كان هذا من غير طبعها، وتقوى على أن تضع عينيها في عين رجل وسيم رأته، لأن شاشة الجوال عوَّدتها على أن الرجال الملاح هم مادة من مواد المشاهدة.

على أية حال، سترى المرأة رجالًا يتمتعون بالوسامة اللافتة، ولو كانوا على شكل باعة، هذا من طبيعة الحياة ويحدث كل يوم، ولكن هناك فرقًا بين من يتقاطع هذا معها في طريق الحياة، وبين من استملحت شكل رجل ما تراه في المسلسل أو المقاطع، وتابعت النظر في وجهه من إعجابها به، ثمَّ قررت أن تستمر في متابعته، وهي تعلم يقينًا أنها لا تفعل ذلك إلا فقط بإغواء جمال منظره؛ وأنا شخصيًّا أرى أنه لا يوجد فارق كبير بينها وبين من ذهبت إلى محل في أحد المولات فوجدت بائعًا وسيمًا واثقًا من نفسه، ثمَّ عادت إلى المول في يوم آخر، وفجأة جنحت إلى المحل نفسه وهي تعلم أن شيئًا من الرغبة في التمتع برؤية وجهه مرة أخرى هو الذي جعلها تميل باتجاه ذلك المحل.

وكفكرة عامة، وبناء على موضوع الجوال ومقاطعه عن الرجال المتمتعين بالوسامة، وشاشة التلفزيون ومسلسلاتها بالأبطال غاية في الأناقة، والمحلات وما فيها من باعة ملفتين للنظر، أقول

إنه لا يصح أن نلمّع المنظار ونرفعه إلى أعيننا، ثمَّ نتصرف وكأننا أبرياء رأوا إنسانًا حسن المظهر بمحض المصادفة فوقع في خاطرهم بشكل عفوي أن منظره حسن.

وفي حال متابعة حساب شخص مشهور يتمتع بالوسامة وحسن الرأي، أو في حال الإعجاب برجل جميل في متجر يتسم بالرقة في الأسلوب واللباقة، لا يصح أن نلمع المنظار ونرفعه إلى أعيننا، وهو ما يعني التعمد والتركيز والمعاودة، ثمَّ نتصرف وكأننا أبرياء قارنوا بين من رأوه وبين من لديهم بالبيت بشكل تلقائي كحديث النفس الذي يحدث فينا عندما نقارن رغمًا عنَّا لوهلة ثمَّ نمضي، الفارق واضح، وتعمد تلميع المنظار ورفعه إلى الأعين، هو بمثابة أن نضع اليد على مقبض باب الفتنة، والأسلم ألا يحدث هذا، لأن من يضع يده على المقبض قد يفكر مرة ما، وفي أجواء نفسية صعبة، في إدارة مقبض الباب، وهو ما يعني هنا التحدث إلى ذلك الشخص المشهور على الخاص، أو الرجوع إلى البائع للفت انتباهه، وكل منهما من كثرة اعتياده على أن هذا يحدث معه، يكون قادرًا على تمييز المرأة التي ساقها إليه إعجابها به، وهذا التحجج من أجل الكلام هو عنده بمثابة تصريح من المرأة بإعجابها به، هي تكون عنده وقتها مجرد طير جديد نزل إلى الشبكة من تلقاء نفسه، نزل إلى الشبكة بالدافع نفسه الذي نزلت به الطيور من قبل، وإذا انفتح هذا الباب انكشف الإنسان أمام ضعفه.

عند هذه النقطة أقف بالحديث عن باب الفتنة، ونعود إلى ما نحب أن نوضحه من أدوار النساء والرجال وواجباتهم: المرأة العاقلة الصالحة هي التي تجعل زوجها يرتاح تمامًا من ناحية أنها لا تضعه في وضع مقارنة، مثلما لا يضع الناس العقلاء البارون آباءهم وأمهاتهم في وضع المقارنة، والزوج يستحق ذلك من زوجته وهو أحق به.

المرأة العاقلة الصالحة هي التي يعيش زوجها وهو لا يشعر بأي ارتباك ولو في أعماقه عند الالتقاء بأسرة أخرى في الزوج فيها مزايا ليست فيه، وهذا يرجع في الغالب إلى معرفته التامة بسمتها وأسلوبها وتقواها، وهو يتكئ على كل هذا ويطمئن، المرأة العاقلة الصالحة لا تطفئ الهواجس، بل تعطي زوجها جرعات من التطمين والمحبة على مدار العمر تمنع هذه الهواجس من الأصل لأقل درجة طبيعية أو تمنعها تمامًا، بحيث يثقل الرجل ويرتاح قلبه. وإن لزم الأمر، فلا مانع من بعض الكلمات التي يعيش بها الرجال عمرًا وهم معتزون بها، والتي تجدد طمأنينتهم، مثل أن تقول المرأة لزوجها له: وهل أنا أرى غيرك؟!

وليس صحيحًا أن الرجل الذي شعر بغيرة زوجته من حظ صديقتها في أثناء نزهة أسرية مثلًا لأن زوج صديقتها صاحب سيارة أفضل، ليس صحيحًا بأن شعوره بالضرورة يعبر عن قلة ثقته بنفسه، هذه إحدى الضلالات الشائعة، فلو اغتاظت زوجته من مستوى السيارة، وشعر هو بذلك من قوة معرفته بطباعها، وعبر عن غضبه من غيظها، فهذا سببه ببساطة سخطها لا قلة ثقته بنفسه، وتهديد الرجل بأن تُلقى عليه تهمة (قلة الثقة بالنفس) إذا ما شعر بغيرة من رجل آخر أو أكثر هي تهمة ظالمة، إذا ما كانت الزوجة شعرت بالغيرة من حظ امرأة أخرى والتقط زوجها هذا الشعور.

الأمر بسيط جدًّا: إن المرأة تستطيع أن تجعل رجلًا خاليًا من المزايا تقريبًا، وليس عنده إلا ثوب واحد، يطمئن ويستريح وهي معه، بينما هو محاط بألمع الناس وأكثرهم وجاهة، فهناك لغة صامتة بين قلب الرجل وقلب المرأة يعرف منها الرجل قدره عندها، فإن قالت له تلك اللغة الصامتة: أنت كل شيء، آمن هو بذلك ولم يراقب نظراتها، هكذا صنعت منه وهو بثوبه الوحيد بطلًا.

الأمر بسيط جدًّا: اجعليه يشعر بأن أي رجل يمكن أن يظهر أمامك في أي مكان لن يجعلك تشعرين بأن زوجك يبدو قليلًا في نقطة ما، أنت كامرأة صالحة، اجعلي نفسك ثقته بنفسه، اجعلي نفسك خير شاهد له، مثل شهادة الأم لابنها، هذا ما يليق بامرأة تريد أن يكون رضا زوجها سببًا لدخولها الجنة.

هذا ما على المرأة، ويبقى على الرجل العاقل أنه إذا أمن من شرور المقارنة، وعاملته زوجته على أنها لا ترى رجلًا غيره، ألا يجعله هذا يقلل من اهتمامه بها، مثلما يقل اهتمام الإنسان في بعض الأحيان بأمه لأنها تحبه بغير شروط ولا تقارنه بأحد، فالمرأة العاقلة الصالحة ليس من المطلوب منها أن تتحمَّل من زوجها أن يقوده الاطمئنان إلى قلة الاهتمام، هذا ليس جزاء عادلًا لامرأة جعلتك فوق المقارنة.

وكذلك يبقى على الراجل العاقل ألا يقوده الاطمئنان إلى أن يهمل نفسه ويهمل تحسين حياته وحياة أسرته بحجة أن زوجته أصيلة وقوية وصالحة وترغب في دخول الجنة ولا يحزنها قياس حالها على أحوال الآخرين؛ اطمئنانك من شر المقارنة لا يعني الفرح بأنك يمكن لك أن تعيش على أي وضع، فالبطل هنا هو الذي لا يجبر زوجته على وضع شديد السوء بسبب إهماله

وتكاسله وقلة عنايته بمظهر الأسرة وأحوالها، وضع يمكن معه أن تقارن ولم تكن المقارنة من طبعها.

البطل الذي تقال له عيوبه بأفضل طريقة ممكنة

في الغالب، عندما يتقدم الرجل لامرأة من أجل الزواج، فهو يريد أن يضع عليها آمالًا عظيمة امتلأ بها قلبه عندما أقدم على الزواج، ذلك لأنه ترك الأخريات واختارها هي تحديدًا، هو لن يقول ذلك ولكن هذا ما يشعر به وهذا ما يقتضيه الموقف؛ ويكون من ضمن آماله العظيمة التي يستحي من التعبير عنها هو أن يمنع الحب امرأته من أن ترى عيوبه وتعترف بها، هو أمل يبدو مبالغًا فيه ويفتقر للنضج ولكنه يريد ذلك، يريد من هذه التي اختارها وقرر أن يكمل عمره معها، أن تكون خلف أمه مباشرة من ناحية التحيز له، في ظهرها، كي تكمل مسيرة التحيز العظيمة، لأنه لم ير من هذا العالم خيرًا خالصًا وحبًّا بلا شائبة من بعد محاباة أمه له، هو لم يهرب من مواجهة العالم بل تقبَّل العالم كما هو، وتعامل معه كما يفعل الرجال، ولكن فيه شيئًا يحن لهذا التحيز، يحن أن ينال موجة جديدة منه، من امرأة، وهذا واحد من أهم الدوافع اللحوحة التي تكون في الرجل وتدفعه للزواج، ولا يسبقها مؤكدًا إلا الرغبة في المتعة الحلال.

الشاب الذي لم يتقرب من فتاة قط ولم يدخل في أي تجربة عاطفية، وكان آخره أن يستحسن فتاة ما بشكل سطحي من بعيد لبعيد، من دون أن يكلمها أو يلفت نظرها، سواء كان هذا كله بوازع ديني أو بسبب عقلانيته ونضجه، أو بسبب خجله، أو بسبب تربيته المحافظة، أيًّا ما كان الذي دفع لذلك كله، هو يظن أنه يستحق مكافأة على صبره وحفظه لقلبه وقلوب الأخريات، مكافأة على جديته، وهذه المكافأة هي أن يكون التي اختارها قادرة على أن تحبه حبًّا عظيمًا يعوض انتظاره، حبًّا لا ترى معه عيوبه.

الشاب الذي عاش تجارب عاطفية متعددة منذ أول سنين المراهقة، ومع أنواع مختلفة من البنات، وفي ظروف مختلفة، وبأعماق مختلفة للعلاقة، هذا الشاب قد جرَّب أن تحبه فتاة ما من ضمن الفتيات اللائي عرفهن، تحبه ذلك الحب الذي لا ترى معه غيره، ولا ترى فيه نقصًا، ولديها استعداد لأن تخسر العالم كله بأبيها وأمها من أجله، جرَّب طعم هذا، ربما من فتاة واحدة أو أكثر، ولكن لنقل واحدة، وتفرقت بهما الطرق، ولعلها لم تكن أعز الفتيات عليه إذا أخذ يراجع الأشكال والمواقف وعناصر الجاذبية كلها، لعلها لم تكن غالية بما فيه الكفاية، ولكن مشاعرها تجاهه هي الغالية. ولأنه جرب هذا من قبل، ويعرفه معرفة جيدة، ويعتز به، فهو يظن أن التي رسا على رصيفها في نهاية الأمر، وقد كان هناك غيرها من يرغبن بشدَّة في أن

يتزوجهن، هو يؤمن بأنها يجب أن تعطيه أقوى مشاعر الحب التي منحته إياه من أحبته بشدة، وإلا يكون قد تعرض للبخس، أنا جربت هذا من قبل، وهذا يدل على أنني أستحقه أو ينفع أن أناله مرة ثانية، أنا أخذته من دون أي ثمن تقريبًا فلماذا لا آخذه وأنا دفعت كل الأثمان؟

إذن الخام ومتعدد التجارب كلاهما يريدان الشيء نفسه، وكذلك فإن القوي العواطف والعقلاني الجاد يريدان الشيء نفسه من الزوجة، هذا العاطفي لأنه يريد الحب نفسه، وهذا العقلاني الجاد لأن زوجة تحبه بشدَّة ستريحه جدًّا. الخام ومتعدد التجارب والعاطفي والعقلاني كلهم يلتقطون فرحة العروس بالخطوبة وبالعريس، والبهجة التي تغمر وجهها، واللين والحياء الظاهرين في تعاملها، وخوفها من مضايقة العريس الذي أعجبها، فيتوقَّعون كلهم أن الأمور تسير على ما يرام، وأن الدنيا تضحك لهم، وأنهم بصدد العيش مع زوجة شديدة الولاء لدرجة أنها لا ترى العيوب، هذه هي القراءة الأولى.

إذن باستثناء الرجل الذي لم يكن يبدو على عروسه أنها فرحة به بشكل واضح، تلك العروس التي أخذت وقتًا للتفكير، ثمَّ قبلت به من دون أن يبدو عليها شيئًا أكبر من التقبل، فإن الرجال الذي دخلوا في تجربة خطوبة كان من الواضح للكل في خلالها أن العروس سعيدة ومتقبلة وتعلن رضاها للأهل والصاحبات ولأصدقاء الصفحة على الفيس، وقالت إن الدبلة تدفئ، وعبرت عن خوفها من الحسد في حالة الواتس، كلهم ظنوا وبناء على تلك الدفعة العاطفية الشديدة، والمؤقتة في الحقيقة، أنهم وجدوا الكنز في آخر الرحلة؛ والقليل منهم في الحقيقة من بعد من سيكون ظنهم في محله وتستمر العروس بعد الزواج في حالة القبول الكامل والحب الذي لا تراجع في مستواه مهما كانت المشكلات.

الرجل الذي أخذ شابة يعلم أنها لا تحبه ولكن فقط قبلت به، يبدأ في الحياة الزوجية وهو لا يقيس عروسه على مسطرة الأمنيات، أما الآخرون فتبدأ المعاناة إذا بدأوا يشعرون أن مؤشر الزوجة الواقعي بدأ يتحرَّك نزولًا عن النقطة القصوى المثالية التي تمنوها، لذلك تكون الأمور في أول مائة متر من سباق الحياة الزوجية في صالح ذلك الذي لا يسوقه أي طموح عاطفي، الذي يعرف أن امرأته لم تأخذه عن حب، لأنه يكون أوسع صدرًا، ولا يزعجه إلا الأمور التي لا يختلف اثنان على أنها مزعجة، وكذلك فهو أكثر الأزواج أريحية في تقبل النقد والملاحظات والنقاط التي

تقول الزوجة إنها تحب أن تتغير، وهو يتقبل أن تقال له عيوبه ما دام أنها لا تقال بطريقة غير جارحة، ولا يشترط أن تقال بأفضل طريقة ممكنة.

على أية حال هذا هو الأمل العظيم، الذي لو تحقق عاش الرجل عيشة هانئة، أن يعيش مع من يبدو أنها لا ترى عيوبه أو لا تحب أن تراها؛ وتصير عيوبه وقتها بطريقة أو بأخرى مصدرًا من مصادر اعتزازه، لأن هذه العيوب هي التي جعلته يعرف يقينًا أن زوجته أحبته كل الحب، أحبته الحب الأعمى الذي يريده، فهذا يقارب عنده معنى أنها أحبته لذاته، وليس لمجموعة من المزايا الواضحة التي يمكن أن تجعلها أو تجعل أي امرأة أخرى تتمسك به.

ويمكن أن يصل الرجل في بعض الحالات التي تفتقر للنضج والحس السليم إلى حالة مستمرة من الاسترخاء والتباهي بسبب عيوبه، إذا ما كان يؤمن مثلًا بأن زوجته قد تأكدت من أنه زائغ العينين، وأنه لا يترك امرأة في السوق ولا امرأة من الجيران إلا ونظر إليها من فوق إلى تحت، ومع ذلك هي تسامحه وتتعايش مع الأمر بعاطفة فيها لمسة من عاطفة الأمهات، وصارا أحيانًا من كثرة الاعتياد يمزحان على هذه النقطة مزحًا به مسحة من العتاب الرقيق، لأنها تحبه جدًّا، والحب يجعلها ضعيفة أمامه، وفي ذات الوقت يجعلها هذا الحب العارم العجيب أقوى وأصلب في عاطفتها من امرأة تحب زوجها حبًّا معقولًا. هذه المرأة بهذا الحب الذي في قلبها تكون شبيهة في عالم السيارات، مع الفارق بالطبع، بالسيارة المعدة لتحمل أشد أنواع الصدمات قسوة، واجتازت اختبارات الأمان القياسية بدرجة كاملة، وهذا في الحقيقة اختيار كثير من الرجال، وخاصة من يتمتعون بطبيعتهم بدرجة محدودة من الحنان والشعور بالآخرين، الذين يعتزون جدًّا بأنهم تزوجوا من نساء قويات التحمل.

وربط الحب أو درجة الحب بتحمل العيوب، لم يولد في ذهن إنسان، بل هو انطباع من انطباعات المجتمع في شؤون العاطفة، فلا يقول الناس عن امرأة أنها تحب زوجها حبًّا كبيرًا جدًّا إلا إذا كان به عيب من تلك العيوب التي يمكن ألا تتحمَّلها امرأة أخرى عاقلة وناضجة ومخلصة، أو حدثت في حياته كبوة تجعل به عيبًا في ظروفه يمكن إلا تتحمَّله امرأة صبورة، فإن تمسكت امرأة بزوج أصابه مرض أثر على بدنه وأضعف علاقته الخاصة بها، أو تعطل عن العمل فترة طويلة، أو ظهرت عليه العصبية وبدأ يهينها، أو ظهر عليه أنه يكثر الاقتراض من الناس والتهرب منهم، أي عيب في الظروف أو الطباع، ولمـَّح بعض الناس لها بحقها في أن

تطلب الطلاق، وصارحها بعضهم بذلك، ولكنها رفضت وأصرت أن تعيش معه، فإنه يحدث شبه إجماع على أنها تحبه، تحبه جدًّا، أكثر ممَّا يستحق، وربما أكثر ممَّا تحب نفسها؛ أما الرجل السوي، والمرأة السوية، فلا أحد يعرف كيف يمكن قياس حجم العاطفة بينهما، يمكن للآخرين التخمين بأنهما متفاهمان، يتبادلان الاحترام، متحابان، أما أنهما يحبان بعضهما جدًّا، فهذا من الصعب معرفته، لأن هذا يمكن معرفته في حال أن أحدهما اختار أن يشقى مع عيوب الآخر على أن يشقى من دونه.

هذه هي معضلة الرجل، وهي أنه يريد زوجة تحبه أكثر ممَّا يستحق، زوجة توفي الكيل وزيادة، يريد زوجة يبدو أنها لا تريد أن ترى عيوبه، ولو أجبرها الناس على رؤية العيوب رأتها في حجم أقل من حجمها وأتعبت نفسها في تبريرها، ولو أثبت لها الناس حجم العيوب وضعف التبريرات أصابها الصمم، وقالت: ولو. هو يريد أن يتكئ على شجرة حب امرأته له، ذلك الحب العجيب، وهذا يريحه أفضل من أن يتكئ على مزاياه، وعلى التغيرات التي يمكن أن يحدثها في نفسه، هو يريد الحب الثابت العجيب، أما مزاياه والتغيرات التي يمكن أن يصنعها بنفسه فهي ملك لحواس الجميع.

هذه هي معضلة الرجل: وهي أنه يحب أن يحسد الناس امرأته على مزاياه، ولكنه يحب أكثر من ذلك أن يحسده الناس على حب امرأته له، هذه هي معضلة الرجل: وهي أنه يفضل أن يقال لزوجته حتَّى من أمها نفسها: ما الذي أعجبك في هذا حتَّى تتحمَّلي كل ذلك منه؟! يفضل هذا عن أن تغضب منه زوجته وتعبر عن أشياء نزلت من قدره عندها فتقول لها أمها كي تصلح بينهما: ولكن زوجك طيب وابن حلال وفيه خصال حميدة كثيرة فدعي البطر. هو يحب أن يضع ساقًا على ساق بينما العالم كله يحاول أن يقنع زوجته بأن تتركه في وسط الطريق، يحب هذا أكثر من أن تفكر زوجته في تركه في وسط الطريق ويحاول العالم كله أقناعها بالتراجع وإعطائه فرصة جديدة، هذا ذوق من؟ هذا ذوق البطل الذي فيه.

هذا المستوى من البطولة، أو حظ البطولة، يحصل عليه بعض الناس، ولكن أغلب الناس لا يحصلون عليه بالطبع، ويحدث هذا للرجل ألم خافت مزمن يصعب عليه تفسيره، ففي النهاية هو لا يشعر بأنه يتعرَّض للحب بأكبر درجة ممكنة.

والرجل لا يسقط أمله العظيم هذا بسهولة، فهو عندما تذكر له زوجته شيئًا يتعبها معه بعد الزواج، يسمع منها ويتخطى ما حدث ويتناساه، ويظل يتعامل على أنها متعلقة به كثيرًا ولا ترى عيوبه، يحاول أن يغش نفسه كي لا يشعر بالهم، وإذا مر وقت وعادت إلى النغمة نفسها أو اكتشفت عيبًا جديدًا وأشارت إليه بنبرة اعتراض، أصابه المغص؛ ولكنه في النهاية سيستخدم نفس تقنية التغابي، متمسكًا بأمل أنها تعطيه الأمل العظيم في الحب الذي يريده، ويرتاح البال في أيام الهدنة التي لا يحدث فيها أن تعبر عن أي ملحوظة، ثمَّ تفصح الزوجة عن اعتراضها مرة أخرى، ثمَّ هدنة، وهكذا، إلى أن يصبح من الواضح له أن زواجه لا يعمل على نظام الحب الأعمى الذي كان ينشده، وهو لا يعرف متى بالتحديد اكتشف ذلك بجلاء ومتى لم يعد عنده قدرة على خداع نفسه.

هل ييأس الرجل إذا لم ينل الأمل العظيم في الحب الأعمى؟ لا، فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل، بعد أن صار من الواضح له أن مرحلة المؤشرات قد انتهت، وأن تنسيقه لم يدخله زيجة الحب الأعمى، يقضي بعض الوقت مع نفسه في شرود حزين، يتذكر خيالات الفتاة أو الفتاتين أو الثلاث اللائي أحببنه كما (ينبغي) أن يُحَب، هذه مرحلة انتقالية يتألم فيها في صمت، ثمَّ يتعامل مع الأمر الواقع في الغالب، لأن هناك أشياء جيدة دون ذلك، فإن لم يكن هذا المستوى المهيب من الحب الأعمى هو المتاح، فهو يتمنى شيئًا آخر أقل حدة، ولكنه حسن على أية حال، ويسعده في حياته كثيرًا، وهو أن يجعلها إعجابها العام والشديد به ترى العيوب ضائعة ومتوزعة في نسيجه الواسع، وبحجم غير مزعج، ترى هذه العيوب باعتبارها خفيفة الظل وتضفي على شخصيته قدرًا من الحيوية والإنسانية، وترى هذه العيوب أيضًا باعتبارها سببًا من أسباب احتوائه وإعطائه مزيدًا من الحنان والاهتمام والرعاية من جانبها، وهذه مشاعر لا تخلو من أمومة في الحقيقة، لكنها أمومة لا تخلو من لمسة من الجدية. وعلى كل حال، تكون العيوب غير منفية من جانب المرأة، ولكنها صارت جزءًا من حالة الحب، وصارت مادة من مواد الدعابة واللوم بينهما، والدعابة واللوم هما من ملح العلاقة، هذا كله شرط أن تؤكد بكل ما فيها أنها تقبله بعيوبه حتَّى وهي تفضل أن يتخلص من تلك العيوب.

يبدأ الرجل إذن في قياس طريقة امرأته معه في التعبير عما يضايقها منه، والتعبير عن الأشياء التي وقعت من شخصيته، على هذا المقياس الجديد، مقياس المرأة التي تعرف عيوب زوجها

وهي تريد أن تراه في أكمل صورة، وهي تغار عليه، وهي تحبه، ولكنها ستزداد إعجابًا به وارتياحًا له إن عالج قدر الإمكان ما يعيبه.

لو وجد أنها مضبوطة على هذا المقياس، ارتاح وشعر بالرضا، أما إذا راودته الشكوك في أنها دون ذلك، فإن أمله أيضًا لن يسقط هكذا مرة واحدة من مرة كان يبدو على أسلوبها فيها أنه خال من الأمومة، الحنونة أو الجادة، لن يسقط من مرة واحدة يبدو فيها كأسلوب امرأة منتبهة تراه بعقلها ووعيها اليقظ ولا يبدو فيها أي تحيز، سيتخطى ما حدث، ويظل يتعامل معها على أنها تغار عليه من عيوبه، ولا تراه بعين الامتعاض والصدمة، أو لا تراه بعين الندم، وإذا مر وقت وعادت إلى الطريقة نفسها التي لا يتقبلها، يصبح من الواضح له أن زواجه لا يعمل على نظام الأم الجادة الذي كان ينشده بعد أن كان ينشد نظام الحب الأعمى، وهو أيضًا في هذه المرة لا يعرف متى بالتحديد اكتشف ذلك بجلاء ومتى لم يعد عنده قدرة على خداع نفسه.

هنا تقف الحياة به عند حائط الصدمة الذي يسند رأسه عليه، فالرجل الطبيعي لا يقبل بأن تقال له عيوبه بطريقة لم تحاول زوجته أن تجعلها أفضل طريقة ممكنة، فجعلته يشعر بجرأتها عليه وضيقها منه وإساءتها إليه، ولم تبال أن تقارنه بغيره بصوت قاس، هذا لأن البطل الذي في الرجل لا يقبل بذلك، ويشعل مشاعر الغربة داخل الرجل، محتجًا عليه إذا فكَّر في الصبر والتمرير، فيعيش الرجل وفيه بطل موتور يؤلبه على زوجته.

إذن لم نعد بحاجة إلى توضيح مطول عن البطل، البطل الذي في الرجل هو الآمن من أن تضعه زوجته وجهًا لوجه أمام عيوبه بطريقة عنيفة، ووجهًا لوجه أمام نواحي عجزه، هو يؤمن ويسعد بأنها آخر شخص يمكن أن يفعل به ذلك، حتَّى إنه يكاد ينسى أن له عيوبًا وهو معها، وبالنسبة إليه فإن هذه الزوجة بروحها الجميلة هي المحمية التي تنطلق في ربوعها نفسه بغير أن تشعر بالتهديد والاستهداف وعلامة القنص الموجبة التي تظهر في العدسات عند التصويب، بينما هناك رجل آخر على النقيض من ذلك كله: يكون ما سمعه من انتقاد زوجته العنيف له هو أكثر من عشرة أمثال ما تعرض له من توبيخ من البشرية كلها من أول فصل دراسي وحتَّى يومه.

وهناك فرق بالطبع بين أن تهدي المرأة زوجها عيوبه وبين أن تهده بها، بين أنها تحاول أن تأخذ بيده، وبين أن تزيح يده عنها مشيرة إلى نقصه مبديةً أنه قليل في عينيها، الفارق رهيب

جدًّا. هناك فرق بين أن تقول الزوجة بتعبيرات صوتها ووجهها أنا رضيت بك، ولكني أؤمن بالذي يمكن أن تصل إليه، أنا أريد هذا التغير لك قبل أي أحد.

إذن الزوجة الصالحة العاقلة، ليست هي التي تحرس عيوب الزوج وتحتفظ بها كي تثبت له رضاها على أي حال، هذا ليس صحيحًا، ولكن هي التي تدير أمر معالجة العيوب بنوع من الصبر الجميل والحب وحسن الرعاية، وبالذكاء الذي يجعله يشعر أن التغيير كان نابعًا من أعماقه، وأن الخير الكامن فيه هو الذي يقوده، هي التي تمارس ضغوطًا عاطفية محسوبة، وليست تلك الضغوط الفجة، وهي التي تعبر عن سعادتها بأي إنجاز في تطوير نفسه ولو كان محدودًا، فإن ذهب إلى أداء واجب عزاء في البلدة على غير طبيعته الانطوائية فإنها ترحب به بعد العودة، وتسأله عن الذين اهتموا به هناك، وتدعو له بأن يجعله الله من واصلي الأرحام، بدلًا من أن تقول له إنه لم يفعل إلا ما فعله الرجال كلهم، لا بد أن تكرم استقباله عند أي فعله ليس من شيمته، حتَّى تحببه فيه.

هذا ما على المرأة، ويبقى على الرجل العاقل الكريم وقتها مع امرأة لا تؤذيه بذكر عيوبه بطريقة متعبة، بأن يجعل الحفاظ على معنوياتها من أولوياته، وأن يعطيها ضمانًا طول العمر بأن لا يتكلَّم عن التغيرات التي حدثت لها مع مرور السنين، وهذا جزاء حسن صحبتها له.

وجه تلك الفتاة أضاء

(البطل الذي تحترم زوجته غيرته)

الشاب الهادئ المحافظ المهذب، الذي يميل إلى الانطواء، قد عاد في إجازة من الخارج، ولبى هو ووالدته دعوة لحضور حفل زواج يخص الجيران في أحد الأندية، وكان بالطبع يستغل هذه المناسبة للتلفت من حوله لعله يجد عروسًا مناسبة هذه المرة، مثلما استغل كل مناسبات وفرص إجازة السنة الماضية التي لم يجد فيها من يبحث عنها. أخذ ينظر في كل النواحي تجاه الفتيات الهادئات الوقورات الجالسات على المقاعد، قليلات الحركة والالتفات، وآخر ما عندهن هو ابتسامة خجولة إذا ما جاءت كاميرات تصوير الفيديو ناحيتهن، ومن بعدها ينظرن إلى الطاولات هربًا من الكاميرا، وقد كان يشعر تجاههن بالتقدير والاحترام والراحة، لكنه في الحقيقة لم ينجذب تجاه أي واحدة منهن ذلك الانجذاب الذي يقلب حياة الشاب رأسًا على عقب؛ وكان محتارًا في أمر نفسه، لماذا لا يعجبه الآن في حفلة الفرح هذا النمط المناسب تمامًا وقد كان يفكر دائمًا بأن عروسه يجب أن تكون بهذا الحياء وبهذا الهدوء وبهذه الرصانة وبهذه الملابس، لماذا تعطل ذوقه الذي كان عنده في الإجازة الماضية عندما كان يقلِّب بصره بين الفتيات المنتقبات والمختمرات عند الخروج من صلاة العيد عند ساحة مسجد مصطفى محمود؟ لا يعرف، لا يعرف.

وفجأة، أصابه سهم من سهام الحفلة: وجد نفسه ينظر إلى فتاة صغيرة جميلة مرحة، على مسرح الحفل، لها غمازان رائعتان، وعينان طيبتان وشقيتان في آن واحد، وكان مأخوذًا وهو ينظر إليها وعليه الانفعال نفسه الذي خيم على الحاضرين جميعًا، عندما بدأوا يستمعون في حالة من الهيام للموال الأصيل الذي يغنيه المطرب الهادئ الملتاع، الذي تتمايل على لحنه الفتاة الصغيرة ذات الغمازتين، تتمايل بطريقة حزينة وآسرة، وفجأة، تخلى المطرب عن هدوئه الذي ينطق به كل شيء فيه، وأعطى إشارة البدء الساخطة للفرقة العازفة، وتحول الموال مرة واحدة إلى أغنية راقصة متهورة بدا أن الحاضرين جميعًا كانوا يتوقَّعونها إلَّا هو لأنه لا يتابع جديد الأغاني في الحقيقة، وأخذت الفتاة بعنف وافتخار، ترقص على هذه الأغنية التي من الواضح أنها سمعتها كثيرًا وتدربت على الرقص عليها كثيرًا، وكانت عيناها تضجان بالحياة والخفة والشعور بالتألق، وقد وقع المسكين دون أن يدري ضحية كل شيء فيها منذ أن وقع بصره عليها.

وانصاعت الإضاءة الثابتة لغواية الموسيقى الصاخبة وصارت تتراقص وتتلاعب، وغاب الجميع تحت وابل من الأضواء المكثفة المتقطعة للمصابيح الصغيرة الملونة، التي تتقلب تحتها الوجوه في السطوع والإعتام، والنظرات الزائغة، والمشاعر المكبوتة؛ وجه تلك الفتاة أضاء، وجه تلك الفتاة اختفى؛ ولم يعد الشاب من بعدها يبحث عن أي وجه من وجوه الفتيات الهادئات المحتشمات، ولا ينظر حتَّى إلى وجه أمه، فقد خلبت الشابة الصغيرة اللطيفة قلبه، وصار لا يريد أن يفارقها بنظره أبدًا؛ وجه تلك الفتاة أضاء، وجه تلك الفتاة اختفى.

ماذا حدث للعائد؟! كل الوصايا التي كان يؤكدها لنفسه في غربته في اختيار العروس التي تشبه نموذجه المحتشم المفضل، وتشبه أخواته، وتناسب ما هو معروف عن عائلته من ميل إلى الحياء والوقار، وتتماشى مع غيرته، والتي كان يراجعها في أثناء رياضة المشي في ليالي الغربة وفي أثناء ما كان يلقّم الغسالة الأتوماتيك في شقته بملابسه التي بحاجة إلى الغسيل، وفي أثناء ما كان يخفض النار على الملوخية التي يحاول أن يطبخها بنفسه، كلها صارت تحت ضربات الإيقاع العالية، تحت قدمي الفتاة الصغيرة الغضة التي تهتز أمامه.

وقع الفتى في الحب الخاطف تجاه هذه الفتاة التي لن يزيد عمرها عن تسعة عشر عامًا، وقع في حب الشكل، وكان حاله مثل حال الشباب والشابات عندما يجدون من يعجبهم حسنه، فيضفون عليه سمات من عندهم تقوّي رغبتهم فيه، فيمكن أن تعجب فتاة بشاب وسيم، فتختلق لنفسها من شدَّة إعجابها به قصة أنه يبدو عليه الحزن وبحاجة إلى من يسنده ويحتويه، وذلك لأنها تريد أن تمتلك وحدها هذه الوسامة بهذه الحجة الأخلاقية، أو يعجب شاب بفتاة جميلة، فيختلق لنفسه من شدَّة إعجابه بها أنها شديدة البراءة من داخلها وهي بحاجة إلى إنسان ناضج صاحب خبرة يحمي هذه البراءة في هذا العالم المتوحش؛ لأنه يريد أن يمتلك هذا الجمال وحده بهذه الحجة الأخلاقية، المبرر الحقيقي خلف الحجج هو الجمال والجمال فقط؛ وصاحبنا هذا قد أقنع نفسه أنها فتاة مجاملة، ومرحة، وطيبة جدًّا، وتلقائية، ولا تحتاط من مكر الناس، وتعتبر كل الذين حولها، الذين يتابعون رقصها، هم جميعًا بمنزلة الأهل، بما فيهم المغني، وهي بحاجة إلى رجل عاقل يسحبها برقة من يدها في طريق النضج، رجل عاقل لديه ما يمنع هذا الجمال من أن ينطفئ مبكرًا بسبب ظروف العيش الصعبة.

هكذا فعل الحب الخاطف بالشاب، ولم تكن عقدة الأمر قط في أنه هو أو غيره قد هام بفتاة سيئة، أو فتاة في وسط غير صالح، فهي في النهاية شابة صغيرة شريفة في وسط مختلف بشكل ما عن وسطه، وما فعلته هو مناسب لأسرتها المنفتحة وفعلته في النهاية أمام الجميع، وقد كانت أمها في قمة الزهو بما فعلت، إنما عقدة الأمر في أنه هام بفتاة لا تناسبه هو تحديدًا وقد تناسب غيره، ممَّا يعني وجود احتمال أكبر بعد الزواج لأن يتعبها وتتعبه، عقدة الأمر أنه لم يبحث عمن يمكن أن تشبهه، ومن لن ترهقه شرحًا للبديهيات، ومن تقدّر مزاياه وخصاله الحميدة واحترامه لنفسه، لم يبحث عمن ستضاء بظهوره في حياتها، لكنه عوضًا عن ذلك بحث عمن هي مضيئة من دونه.

عقدة الأمر أنه لم يبحث في نهاية صبره على العزوبة، عمن جاءت من منبت مقارب لمنبته قدر المستطاع، وهذا الذي يفعله العقلاء، ليس من باب التكريم لتلك المنابت الحسنة ولا من باب الحطِّ من قيمة المنابت المتوسطة أو المتواضعة، فأكثر الناس مستورون في أعين بعضهم بعضًا بنعمة من ربهم، أبدًا، بل غرض ذلك أن يعطي الإنسان فرصة أكبر لاحتمال التوفيق بينه وبين من سيعيش معها، بسبب توافق الطباع وتقارب النظر فيما ينفع وما لا ينفع.

وهذا المشهد الحي المتفجر، مشهد الرقص الجريء، الذي سيحاول الشاب من بعد ذلك أن يتخطاه ولا يفكر فيه بنفسية قلقة، هو ليس مشهدًا عابرًا في يوم عابر ومناسبة ومرَّت، ليس مشهدًا مقطوعًا مفاجئًا، بل هو جزء من تكوينها، هو مشهد يتوفر به نسخة من دى إن إيه الشخصية، تلك النسخة التي يمكن من خلالها توقع الكثير من الاختلافات في فترة التعارف، ويمكن من خلالها توقع الكثير من الأشياء التي يمكن أن تضايق ذلك الشاب لو رآها، ولكن الذي وصل إلى هذا المستوى من التعلق المفاجئ لا يحب في الغالب أن يدقق كثيرًا، ولا يحب أن يراجعه أحد في خياراته العاطفية المفاجئة، ولا أمه.

بعد أيام قليلة تمت الخطبة، وقد قابلته أشياء غير جوهرية كان يعبر عن رغبته في معالجتها بطريقة هادئة وحنونة وهو يراعي صغر سنها، مثل أنها تضع الصور الكثيرة لمطربها المفضل في غرفتها، وقد كتبت تحت إحداها باللغة الإنجليزية أنه حبها الوحيد وفتاها الوحيد، قد ضايقه وجود الصور على الحائط وكان بمثابة مفاجئة سخيفة له كأنها غير متوقعة على الإطلاق، لأنه صار يتخيل الفتاة مع نفسه بمعزل عن أنه رآها وتعلق بها وهي ترقص أمام الناس، بينما هو

صعد إلى المسرح وصافح العريس بسرعة ونزل بسبب ميله إلى الانطواء والحياء، ولكنه ذكَّر نفسه بأنها شابة صغيرة، وأن البنات يكبرن من بعد ذلك وينضجن ويتخلين من تلقاء أنفسهن عن بعض الأفكار والميول التافهة التي تناسب سن المراهقة، ومنها تعليق صور الفنانين.

وعلى أية حال كانت الصغيرة تعرف كيف ترضيه وكيف تجعل الأمر يتم على خير، فهو قد أعجبها بشكله وكياسته وأخلاقه وظروفه المادية الجيدة، والأمر هين، وهو وإن كان غيورًا ومحافظًا إلا أنه من الصعب وصفه بالتعنت والقسوة، فأطاعته وأراحته، واعتذرت للنجم وهي ترفع صوره؛ وهكذا تفاصيل في هذا الحجم، تعبر عن اختلاف ما بين الشخصيتين، وبين الأسرتين أيضًا، وهو اختلاف ليس مرعبًا ولكنه حقيقي في الوقت نفسه، وبالرغم ممَّا يبدو عليها من قوة شخصية وثقة بالنفس يفوقان عمرها، إلا أنه كان يرضيه منها أنها لم تكن تبدو أمامه إنسانة عنيدة صلبة الرأس.

بعد سنوات، وفي مشهد ليلي، وفي أجواء أقل جمالًا من تلك الليلة التي كان وجهها فيها يضيء ويختفي تحت الأضواء المتقطعة، وقد صار رجلًا جادًّا في أول الأربعين من عمره، وهي بجانبه في الطريق، جميلة كما كانت دائمًا، وهما متجهان معًا لحفل زواج، قال لها بطريقة وادعة، هي أقل من أن يقال عنها طريقة لائمة، عن ضيق تنورتها، إنه كان من الأفضل لو جاءت بشيء لا يجسِّمها هكذا، فنظرت إليه بعينين يتطاير منهما الشرر، وسبقته خطوة وراء خطوة، ونفخت، وتأففت، وقالت: رجل نكدى!

وهكذا يذوق من طعم اختياره، ويسمع منها ما ليس لمثله أن يسمع، رغم أنه يفوِّت كثيرًا، ولا يتكلَّم عن كل ما يضايقه، وإن تكلَّم كان كلامه بأطيب طريقة. إنها لم تكن لينة بالدرجة التي توقعها، لم تكن لينة كما كانت عندما ذهب إليها في زيارة في أثناء الخطوبة وسعد جدًّا عندما رمى نظرة مطولة ووجد حوائط غرفتها بغير صور المغني، لقد أتعبته، واختارت أن ترفض تأثيره، وترفض قناعاته، وترفض منهج أهله في الحياة، ولم تعد تطرح عليه إلا شيئًا واحدًا بعدة صيغ: وهو أن يتغير، ويخلع شخصيته التي تبدو لها كئيبة خجولة، وأن يلائم تلك الفتاة التي أعجبه حسنها، هذا ما تؤمن به الفتاة التي تعرف أن جمالها وجمال عودها هما اللذان جاءا بذلك العريس: إنه قد فاز بها دون الآخرين، دون المفاليس، وأن عليه أن يستمتع بها كما هي ويحمد ربه، وأن يلاين فرسه التي اشتراها، ولا يكثر عليها من الملام.

هذه القصة التي تبدو أنها ليست أكثر من قصة شخص ما، والتي يمكن أن ينظر إليها على أنها قصة عادية بينما الحياة مليئة بأنواع من المآسي الأخرى التي تمزق نياط القلوب، هذه القصة تتكرر آلاف المرات، وستظل تتكرر، والآلام التي يشعر بها الرجل في هذه القصص الحياتية ليست سهلة التحمل، فهو يشعر بحزن عميق متأصل، يشعر بالغبن، لأنه لا يفهم أبدًا كيف لم تتغير زوجته ذلك التغير البسيط الذي يريده منها في خلال خمس عشرة سنة أثبت فيها حبه وجعلها فيها قبل أي إنسان، كيف لم تتزحزح ولماذا لم تتزحزح؟ لا يفهم لماذا لم تحب زوجته جوه المحافظ وتستقر نفسها في هذا الجو الذي يريحه؟ لماذا لم توافقه في أشياء كان يمكن أن تجعله أسعد الناس، وهي في النهاية أشياء لا تمثل تضحية تُذكر من امرأة تعرف أن زوجها يحبها ومن المفترض أنها تحبه؟

وهذا الشاب وهذه الفتاة مجرد نموذج، وقد يحدث غير هذا الشكل من دخول رجل على موجة أخرى غير موجته لفتاةٍ ما فيما يشبه الغلط الجاذب لكل منهما، كأن يعجب شاب من أسرة مرموقة عريقة بفتاة من أسرة أكثر عصرية من أسرته، عجبه جمالها وأناقتها ورقيها الاجتماعي ورقتها وعذوبة لفظها، والطريقة الناعمة التي تمرر بها أصابعها في شعرها، رآها في حفلة عيد ميلادها الذي دعته إليها مع آخرين من الجنسين، وعرف في الحفل الجميل أن أحد الشباب من الحاضرين هو صديقها المقرب جدًّا، ورغم أنه تضايق من أن يكون لها صديق مقرب جدًّا هكذا من الشباب، إلا أنه فرح على العموم بأنها غير مرتبطة به؛ هذا المشهد أيضًا، مشهد حفل عيد الميلاد بكل تفاصيله، يتوفر به نسخة من دي إن إيه الشخصية، ومع ذلك سيضلل ذلك الشاب نفسه تحت تأثير جمالها ورقتها، ويعرض عليها الخطوبة من بعد ذلك، وتوافق هي رغم ما شعرت به من اختلاف بين الأسرتين، ليكونا معًا في مواجهة احتمال أن يتعبا بعضهما، وأن يعيش الشاب وهو يعاني من غيرته إلى الأبد، رغم أنه كان من السهل عليه جدًّا أن يختار إنسانة لا تجعل غيرته ملتهبة هكذا، لكنه الفخ العاطفي الذي يقع فيه الرجال، حتَّى لو شاهدوا وقوع الآخرين فيه قبلهم.

ويمكن من خلال الضوء الحزين لتلك النوعية من القصص التي تعبر عن عدم التروي في الاختيار، أن ننصح القادمين على الطريق، نقلِّب لهم النور كما يقال بلغة السائقين على الطرق السريعة:

على الإنسان أن يحمي نفسه من القراءة المضللة التي يتسبب فيها الجمال وحده، فالجمال يجعل الإنسان متحيزًا بشكل واضح، ويعميه عن أن يضع التناقضات التي وجدها وهو على البر في حجمها الصحيح، ويجعله مستهينًا بها، وتلك التناقضات التي استهان بها، هي التي ستكون سببًا في الغالب في أن نسبة الخلافات بينه وبين من اختارها بعد الزواج عالية عن الوضع الطبيعي، لن يختلفا بسبب النقود، لن يختلفا بسبب الإهمال، سيختلفان بسبب الغيرة، وبسبب نظرة كل منهما لما هو مقبول وغير مقبول من السلوك، ومن المفترض أن يكون هامش هذه النوعية من الخلافات محدودًا بين الزوجين بالأساس. وما يحدث في حالات كثيرة بين زوجين مختلفين هو أن الرجل بعد أن يحاول في أول الزواج أن يغير زوجته، تلين صلابته مع الأيام، بسبب أنه يريد التخلص من المنغصات التي بينها وبينه، ويريد أن يواجه فقط تلك التحديات المفروضة على رب الأسرة، ويتطوع من تلقاء نفسه بقتل البطل الذي فيه، ويتركها تتصرَّف كما يحلو لها.

الجمال يضلل من تأثر به، هذه حقيقة، ولو كانت فتاة حفل الزواج متوسطة الشكل، لحكم عليها الشاب بأنها فتاة جريئة، أكثر جرأة منه، وانتهى الأمر، وهذا هو الحكم البسيط والمباشر من إنسان من وسطه، ولو رشحتها له إحدى الحاضرات لرفع حاجبيه تعجبًا واستخسر الكلام؛ ولو كانت فتاة حفل عيد الميلاد غير جذابة هكذا وغير رقيقة، لحكم عليها الشاب وهو يراها تضع يدها على كتف صديقها المقرب بأن فيها قدرًا من الميوعة بسبب تربيتها ذات الطابع الغربي، وانتهى الأمر، وهذا هو الحكم البسيط والمباشر من إنسان من وسطه، ولو همس إليه أحد الأصدقاء بأن يفكر في خطبتها، لقال له إننا أسرة عريقة لا نطلب يد من لها صاحب من الرجال، ولو سمَّت هذه العلاقة باللغة الإنجليزية.

على الإنسان أيضًا أن يكرم نفسه، ويكرم شعوره بالغيرة، ويكرم البطل الذي فيه، ولا يراهن على الحب والعطاء العاطفي وحدهما، بل يختار من البدء لنفسه من لن تحتاج إلى أن يشرح لها ما لا يستحق الشرح، لأنه قد يستمر في الشرح إلى الأبد، وليس من معالم الحياة الزوجية الهادئة أن يستمر الرجل في شرح الأشياء نفسها كل عمره؛ سيستمر في الشرح إذن، وسيستمر الطرف في الآخر في شعوره بأن الأمر لا يستحق أبدًا كل هذه الثرثرة، وكل هذا الوجوم الذي يبدو على وجه الرجل الغيور.

على الإنسان أن يختار الإنسانة التي تهمس له بيئتها وشخصيتها بأن الأمر آمن بالنسبة إلى طباعه وحياته، وأن تصرفات الحياة العادية للفتاة التي يفكر فيها هي لن تكون في أغلبيتها العظمى منغصة له ولن يحتاج إلا نادرًا إلى أن يلفت انتباهها لأمر حز في نفسه، وهذا هو الأسهل والأسلم، أما أن يفكر الشاب في الفتاة على أنها قالب جميل أعجبه وهو سيحشيه بمعرفته على مهل، كما في أسطورة بجماليون، أو في مسرحية سيدتي الجميلة، فهذه مغامرة غير محسوبة، لأن الأمور في الغالب لا تسير على هذا النحو، الغالب أنها قادرة على أن تحشيه هي بمعرفتها.

على الإنسان أيضًا أن يختار الإنسانة التي لن تشكو من غيرته، بسبب أنها لن تثير غيرته في أغلب حياتها بسبب استقامتها وتعقلها وتناسب دماغها مع دماغه، يختار التي تكون جرعات غيرته عليها بالقدر المعقول الذي تعتدل به نكهة الحياة الزوجية، القدر الذي يثير إعجاب المرأة، ولا يختار التي تكون جرعات غيرته عليها تفسد نكهة الحياة الزوجية؛ على الإنسان أن يأخذ الإنسانة المناسبة هكذا ببساطة، بالمعنى الذي يفهمه ويتوقَّعه أقرب المقربين والمقربات له، الإنسانة التي لا يكبتها ولا تكبته، ولا يربكها ولا تربكه، عليه من أجل هذا أن يأخذ السنوات التي عاشتها البنت قبل أن تعرفه، سنوات التكوين، على محمل الجد، ويفكر أكثر من مرة قبل الارتباط بها إذا وجد أن دماغها لا تتناسب مع دماغه، خوفًا من ألا تحترم بعد الزواج غيرته وشكله الاجتماعي في وسطه، خوفًا من أن تتعبه وتختار أن تبقى قريبة الشبه من ذاتها التي تعرفها قبل أن تراه.

التي تثير غيرة زوجها ولو لم تتعمد ذلك على الإطلاق، ستشكو لا محالة ولو لنفسها من سوء مزاجه الغالب عليه؛ ونفس هذا الرجل، بأخلاقه وسمته هذا، إن كان مع امرأة مناسبة، امرأة لا يراجعها في ملابس، ولا في ارتفاع صوت، ولا في جرأة ومرح مع الباعة، ولا في فلاتر صورها على مواقع التواصل، ويمشي بجانبها مرتاحًا لا يخاف من أن يلتهمها أحد بعينيه، ولا يخاف من أن يظن بها أحد ما أنه من الممكن أن يحاول لفت انتباهها، سيبدو أقل عبوسًا بالتأكيد، وبالتالي لن تشكو مثلها من سوء مزاجه.

وهذه المرأة التي يغار عليها زوجها من ملابسها حتَّى ولو لم تكن فاضحة، ومن جرأتها في التعامل مع الرجال ولو لم تكن تخضع بالقول، ومن صورها في مواقع التواصل التي تلاعبت

فيها بالمؤثرات والفلاتر ولو لم تكن مبتذلة، هي في النهاية ستعتبر أن صاحبتها التي تلبس ملابسها نفسها ولها الجرأة نفسها وتستخدم الفلاتر نفسها أكثر حظًّا منها، لأن زوجها متفتح وواسع الصدر وغيرته محدودة جدًّا ولا يدقق في مثل هذه الأمور، ويترك للمرأة مساحة من التلقائية إن كان يعرف في المجمل أنها لن تخون ثقته، فعلى أي شيء يجعل الغيور نفسه في وضع مثل هذا تحسد فيه زوجته صاحبتها على الرجل الذي لا يغار، والأولى بالنساء أن يحسدن المرأة التي يغار عليها زوجها ما دام أنه لا يطيش في غيرته ولا يسارع إلى الاتهام؟

الرجل عليه إذن أن يختار بعناية فائقة من تكون في حجم غيرته، حتَّى لا يطيل الشرح، وحتَّى لا يكون عبوسًا معبِّرًا عن عدم الارتياح، وحتَّى لا يجد نفسه في النهاية هو خيبة أمل امرأةٍ ما لم تعتبر غيرة زوجها عليها من الحظ السعيد.

الزوجة العاقلة الصالحة هي التي تحترم غيرة زوجها، وتعرف كيف تبعد عن كل ما يمكن أن يحز في نفسه الغيورة؛ ولو جاءت من أسرة أكثر انفتاحًا من أسرته، فهي تكون على خلق زوجها وطبعه، وهو أولى بها من أهلها، ولا تعتبر تمسكها بما خرجت للحياة عليه ونشأت به، لا تعتبر هذا من قوة الشخصية، فقوي الشخصية إذا عرف الخير اتبعه وغلب طبعه، ولا تعتبر تنصلها من بعض الأمور التي كرهها زوجها في بيئتها وألمح إليها بطريقة غير جارحة، لا تعتبر هذا التنصل من الدناءة وقلة الأصل، فليس كل ما ينشأ عليه الإنسان خير له.

الزوجة العاقلة الصالحة عندما تختلف مع زوجها لا يكون أول ما تفكر فيه أنها جميلة، وأن عليه أن يقبّل يديه وجهًا وظهرًا ويسكت، وأنها تعرف أنها متعلق بها بسبب حسنها، فأحيانًا ما تعصي المرأة زوجها اعتمادًا على جمالها، مثلما أن الرجل يمكن أن يعصي عقله اعتمادًا على جمال من ظهرت أمامه فيختارها وهي غير مناسبة له، بل يكون أول ما تفكر فيه هو أن يكون راضيًا عنها فرضاه سبب من أسباب الجنة، ورضاه بسبب طاعتها وحسن طبعها شيء، وتعلقه بها وبجمالها ومفاتنها شيء آخر.

الزوجة العاقلة الصالحة هي المؤهلة بتكوينها وطباعها وتقواها الحقيقية غير المزيفة كي تجعل زوجها مطمئنًا تمامًا من ناحيتها، مطمئنًّا من أنها ليست عند هذه الحافة التي قد يقع عندها كثير من النساء ومنهن بعض الفاضلات للأسف، الحافة التي يصنعها الاختلاط والأريحية التي تتعامل بها بعض النساء مع الرجال بحيث يرتفع معها قدر من الكلفة

الطبيعية، الحافة التي قد يحدث في لحظة فوضوية عارمة أن يقع عندها اثنان كان يتكلَّمان ببساطة وحسن نية، ثمَّ شعرا بكيمياء غريبة تسري بينهما، الحافة التي يمكن أن يستغلها في لحظة ضعف مدير، أو زميل عمل، أو جار، أو قريب، أو زوج الصاحبة، أو صاحب الزوج، أو مراجع رسالة الدكتوراه، أو محاضر تنمية بشرية، أو أخصائي نفسي، أو مدرب اللياقة البدنية، أو معلم الفروسية، أو مفسر الأحلام، أو مدرس العيال الذي لاحظ أن البيه لا يوجد في البيت كثيرًا، أو حتَّى محفِّظ القرآن.

الزوجة العاقلة الصالحة ليست فقط هي التي يطمئن الزوج بأنها لن تدخل في تلك الحافة التي يمكن أن تقع من عندها في لحظة مجنونة، بل هي أيضًا التي تجعل كل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، التي يمكن ملاحظتها بسهولة والتي تحتاج إلى رجل خبير يدقق في النساء، وكذلك تجعل نبرتها ونظرتها وملابسها وحياءها وطريقة كلامها القليل عن زوجها، تجعل كل هذا يقدمها للآخرين بالطريقة التي ييأس منها من في قلبه أي مرض، وهم كثيرون، والتي تفقد الرجال الطبيعيين أي جرأة على التودد والملاطفة والكلام الذي يحمل معنيين، وترتاح منهم ويرتاحوا، أما غير الطبيعيين، الذين لا يعتقون أي أنثى في الحقيقة ولو كانت تبدو كريمة، الذين يمكن أن يتعرَّضوا لواحدة بغير أي اشتباه، حتَّى لو كانت خارجة من دار التحفيظ، فلا حرج عليها إن تعرضت لذلك، وهي غير مسؤولة عن الاعتذار لزوجها عن حماقات الآخرين.

الزوجة العاقلة الصالحة لا تتحوَّل إلى نصف رجل كي يطمئن زوجها ويؤمن بأنها تستطيع العيش بين مائة من الرجال كما يقولون، بل هي تؤمن بأنها أنثى وأنها ستظل أنثى كما خلقها ربها، وأن اتخاذ المسافة الآمنة وصيانة عرض الزوج وتقوى الله أفضل كثيرًا من الاختلاط بالرجال بغير ضبط وربط؛ فبعض الزوجات الجريئات من الممكن أن تقيم الواحدة منهن علاقة صداقة مميزة مع زميل لها من زملاء العمل، بحيث إنه يمكن أن يكلمها في البيت وتضحك معه ويتكلَّمان عن مؤامرات الشغل، وقد يخطر في بال الزوج خوف من أن تحدث عثرة عاطفية بينهما في أي لحظة، بسبب ذلك القرب وذلك الارتياح وذلك الاعتياد، ولكنه لا يملك الجرأة على التعبير عن خوفه هذا، خوفًا من أن تصيح فيه زوجته، وخوفًا من أن يحزن على نفسه جدًّا إذا نطق بما هو مخبوء في قعر نفسه، ويحاول أن يطمئن نفسه بأن بها رجولة وصراحة وجرأة، وليست طرية ولا ملساء فيضحك عليها أحد هكذا؛ والحقيقة أن قوة شخصية المرأة وما فيها

من الاسترجال يحميانها أمام كثير من الرجال الذين لا يفضلون هذا النوع، لكن هذا لا يعني أنهما مضمونان كل ضمان مع أي رجل ألغت أغلب الحدود بينها وبينه، هذا ليس صحيحًا، فيمكن أن تأتي المرأة التي توصف بأنها قادرة وقوية، عند رجل رقيق حساس خال من لمسات الفحولة ولا يريد أن يضحك على أي امرأة، ويسيل منها الحنان والاطمئنان تجاهه بصورة مفرطة، في مفاجأة عجيبة لها هي نفسها، إنه يمكن أن يكسر حدتها وصلابتها في التعامل وهو لا يقصد ذلك على الإطلاق، ولكن هذا أثر اختلافه عمن اعتادت على التعامل معهم، أثر لطفه وأدبه وخجله وحسنه اختياره للألفاظ، فتشعر أول الأمر أنها ورغمًا عنها تعجز عن أن تعامله مثلما تعامل الرجال الآخرين.

وهذا الزوج الذي يحاول أن يطمئن نفسه بأن امرأته العملية بها لمسة رجولة واضحة، وجرأة، لن تختفي مخاوفه تمامًا، بل تظل خامدة فيه، في هذه المنطقة البعيدة جدًّا بداخل الرجال التي لا يطلعون عليها أحدًا أبدًا ما دام أنه لم يجدّ جديد، وهذا الزوج يعيش في أثناء ذلك على شذرات متناثرة تأتي في وسط كلامها معه تنعش طمأنينته: عندما تتهم هذا الصديق مرة بأنه سوسة ويمكن أن ينقل في بعض الأحيان خبرًا للإدارة، أو تتهمه بأنه أخذ مكافأة هي كانت أولى بها، أو تقول عنه ضاحكةً إنه كان حريصًا في اللقاء العملي الأخير الذي حدث في إحدى القاعات في الفندق على أن يلتهم أكبر قدر ممكن من وجبات الضيافة الخفيفة.

المرأة التي تجعل روح زوجها تتغذَّى على مثل هذه الشذرات التي تجعله يزداد اطمئنانًا لكون الرجل الآخر الذي تحب زوجته الكلام معه، لا يبدو في نظرها كاملًا كما يبدو الرجل في عين من أعجبت به، هي ليست المرأة العاقلة الصالحة التي أريد الكلام عنها حتَّى ولو لم يكن بينها وبين زميلها أي شيء مريب في الحقيقة، فالمرأة العاقلة الصالحة هي التي لا ترضى بأن تجوِّع وتركِّع البطل الذي في زوجها حتَّى يتقبل ما لا يتقبله وما لا ترتاح إليه نفسه، حتَّى يتعب من شيء لا يجرؤ على الكلام عنه، وكون أن هذه المرأة التي كتبت عنها لم تؤمن بأن مجهودًا تبذله في الحفاظ على معنويات زوجها وفي الحفاظ على شعوره بالراحة هو أهم بكثير من المجهود الذي تبذله للحفاظ على زميل العمل كصديق ولو كان يدفعها إلى ذلك اعتبارات عملية وتربيطات لا أكثر، فإن هذا يجعلها غير المرأة العاقلة الصالحة التي أشير إليها، ولو لم يكن من

وراء فعلها أي خيانة، المرأة الصالحة تؤمن بأن بساط العلاقة الزوجية المفروش تحت كل التفاصيل هو الطمأنينة، وبغير طمأنينة لا يكون هناك أي أهمية لكل التفاصيل.

هذا ويبقى على الرجل العاقل الكريم الذي يعيش مع امرأة لا تثير غيرته بسبب تقواها واستقامتها، وحرصها على تجنب ما لا يرضيه، يبقى عليه أن يكرمها بأن يغار عليها تلك الغيرة اللطيفة الخفيفة التي هي في مقام الغزل، لأنه ليس من الإنصاف أن يكافئها على حسن سيرها وحفظها لاسمه واسمها بأن يتصرَّف معها وكأنها لا يراها من جنس الإناث إلا إذا اختلى بها وقضى حاجته منها.

يبقى على الراجل العاقل الكريم الذي ضيقت زوجته عالمها بحيث لا تطأ شيئًا ممَّا يجعل زوجها يئن من الغيرة، أن يوسع ذلك العالم الذي بينهما ويجعلها فيه أنثى حرَّة وجريئة وحافية القدمين، ومنطلقة جدًّا على عشب العلاقة الندي.

البطل الذي لم تهدم زوجته في بنائه

بسبب صعوبة العنوان، كان لا بد هذه المرة من مدخل يقلل الاحتقان الذي ممكن أن يشعر به القارئ، الذي يمكن أن يفكر في حاله ويسترجع الصور، ويرى أنه يتعرَّض للهدم منذ سنوات، وهذا لا يمكن أن يكون ممَّا يسعى إليه الكتاب، لذا أقول في البداية إنه مهما حرص الأزواج والزوجات على الكمال فإن الرجل يبني في المرأة ولكنه أيضًا يهدم فيها، والمرأة تبني في الرجل ولكنها أيضًا تهدم فيه، وهذا من طبيعة الحياة الدنيا، ومن آثار نقصنا البشري، وهذا أيضًا من فعل الأيام والظروف والمصاعب في الناس.

مهما حرص الأزواج والزوجات على الكمال فإنه سيبقى في الغالب شيء في نفس الشريك يحز فيه، بل ويمكن أن يكون الذي حز فيه هو من كمال الشريك وليس من نقصه، كأن يحز في نفس المرأة أن زوجها ليس ضعيفًا أمام مغريات التسوق وعروض التقسيط ولا يطاوعها في كل ما تشتهي ويحب الإنفاق بما يناسب الدخل، وتحكم هي على البريء بأنه كان يهد في طموحها طوال عمره، وكأن يحز في نفس الرجل أن امرأته ترفض خلع الحجاب كي تكون شبيهة بالجارات وزوجات زملاء العمل، ويحكم على البريئة بأنها أعاقت صعوده الاجتماعي؛ لا مفر من أن يحز في النفس شيء ولو بسبب اختلاف الطباع أو الآمال، حتَّى كمالنا وابتعادنا عن العيبة يمكن أن يسبب المضايقة للشريك.

الهدم في الشريك معنى موجع ومخيف، فلا أحد وهو يجلس آمنًا على البر يمكن أن يختار إنسانًا كي يعيش معه إلى نهاية العمر وهو يعلم أن هذا سيهدم فيه مهما كان يحبه، وفي ذات الوقت فإن ذلك الذي هدم هدمًا واضحًا في شريك الحياة هو لم يرتدِ في الماضي نظارة سوداء تعطي ملمحًا تآمريًّا وقال: أنا الآن مستعد للمهمة، وسأهدم في هذا الإنسان؛ بل الأمر هو نتيجة التكوين والخلفية الاجتماعية والميول والعقلية وقوة العاطفة ومستوى الإنصات بين الشريكين ومفاجآت الحياة والأحداث المؤسفة والأعباء التي كانت تبدو فوق الطاقة؛ والحاصل هو أن الإنسان لا يستطيع أن يتوقَّع بدقة ما سيفعله الشريك في حياته، بل لا يستطيع الإنسان في الحقيقة أن يتوقَّع حتَّى نفسه.

والعبرة في موضوع البناء في الشريك والهدم فيه، هو بغالب ما يفعله الإنسان في شريك حياته، هل ساهم مساهمة واضحة في بناء شيء فيه لم يكن كاملًا، أم ساهم بشكل ملحوظ في أن يهدم

جزءًا منه كان سليمًا قبله، أم اختلف عليه بالبناء والهدم فصار من الحيرة بمكان أن نحكم على نوع أثره العام عليه حكمًا يرتاح له القلب والضمير؟

والعبرة ليست بالأفعال فقط، بل بذلك الشعور أيضًا الذي يوجد خلف الهمة والأفعال، ذلك الشعور الذي يغلب على كل واحد منهما تجاه الآخر، ذلك الشعور الكريم غير الحب نفسه بعطاياه الغالية، وهو التعاطف، ذلك التعاطف مع الشخص الذي يتعرَّض للبناء والهدم أمام نظري، الشخص الذي تترك الدنيا علاماتها عليه أمامي عامًا بعد عام، وهو شعور سيصل إلى الطرف الآخر حتمًا إن كان موجودًا عندي.

بعد فتح بيت، والعيش تحت سقف واحد مع شريك الحياة، نحن لا نتقاسم الأغطية والألحفة فقط مع هذا الإنسان الذي يرقد بالجوار، والذي هو مثلنا بين نفَس داخل ونفَس خارج، والذي يفتح عينيه في الصباح وينظر إلى السقف ويذكر مواجهته مع العيش المتجددة.

إن ما ينمو بيننا، أو ما يجب أن ينمو بيننا، هو هذا التعاطف القوي مع إنسان نشاهد عن قرب شديد ماذا تفعل الأيام والشدائد فيه، مع إنسان نقدِّر له كفاحه، واستبساله، وأحماله. ولا يمكن تخيل الحياة الزوجية إلا بتقدير الرجل لتعب زوجته المضني في تربية العيال، ولا بتقدير الزوجة لعودة زوجها مهدودًا من العمل، لا يمكن تخيل الحياة الزوجية إلا ونحن من أجل (شعرة واحدة بيضاء ظهرت في رأس الآخر في حياته معي) نتحمَّل الكثير، ونطبطب، ونبتسم ونحيي الكفاح. إن الأيام تبرينا في البيوت، مثلما يُبرَى القلم، نترهل، نكبر، نتعب، نتوجَّع، وأقل ما نستحقه من بعضنا بعضًا هو التقدير والعطف والتحيز الجميل.

وفي أثناء الحياة، يمكن أن تبني المرأة في زوجها، يمكن أن يكون أغلب البناء الذي فيه هو منها، لعلها استطاعت بعد جهد شديد وهي تضغط على أسنانها أن تخرجه من أوحال الفوضى والإهمال ومحدودية الطموح، أو من أوحال الفراغ واللهو والآثام، أو من ضباب عدم شعوره بنفسه الذي جعل الآخرون يستغلونه، ويمكن أنها في المقابل كثيرًا ما نالت من نفسيته بأظفارها، ويمكن أنها قد تعاملت معه في بعض الأوقات الحرجة بطريقة جرحت اعتزازه بنفسه، ويمكن أنها في لحظات المواجهة المؤلمة قد وضعته وجهًا لوجه أمام ضعفه وخيباته؛ إنها إذن قد قامت بالبناء فيه بغير شك، ولولا وجودها ربما أخذ يدور حول نفسه طول العمر مثل أي إنسان ضائع ومنحوس، هذا صحيح، لكنها للأسف قد هدمت فيه أيضًا، ولكن يمكن أن

يشفع لها عنده إخلاصها وتعاطفها، إذا كان يشعر أنها من خلف هذه الشدَّة كانت متعاطفة معه.

هذا يوضح لنا أننا بحاجة إلى أن نتروى، ولا نحكم على فعل الشريك بناءً فقط على كل ما فعله بنا في الأوقات العسيرة، ألا نحكم عليه بجمع كل ما تعرضنا له من أذى منه منزوعًا من السياق والظروف الموجعة، إذ يجب أن ينظر الإنسان بكل صراحة إلى النواقص التي في ذاته، والنواقص التي في ظروفه، التي كانت سببًا في تعب الآخر معه؛ هذا ويبقى على الإنسان دائمًا وهو يبني في الشريك ومع الشريك، أن يحترس من شيء ليس رخيصًا مثل سجادة يمكن أن ندهسها ولا نبالي، ألا يدهس نفسية الشريك، ولا يجعله يئنُّ من شدَّة وطأته عليه، ألا يزعزع ثقته بذاته، ولا يخلخله من الداخل، ولا يجعله يمشي بين الناس بوجه مبتسم بينما هو يترنَّح في أعماقه.

وبسبب أن الكتاب قد ركز على النفسية من أوله لآخره، وبسبب أننا مررنا على النفسية في السطور السابقة من هذا الفصل، لم أشأ أن أفصِّل عنوانًا فرعيًّا هنا في هذا الفصل عن: الزوجة ونفسية الرجل، لأن هذا هو الكتاب كله تقريبًا؛ لكن سأوضح هنا بعض الحوائط شديدة الأهمية في كيان أي رجل، وأتكلم في آثار الزوجات عليها بين من قامت تبني ومن أخذت تهدم.

الزوجة ودين الرجل

أول ما أحب أن أتكلَّم عنه هو النظر في أثر الزوجة على دين زوجها، النظر إذا ما كانت قد قامت على العموم بتقوية بناء الدين في زوجها أم أطاحت منه كما يطيح الدهر من المعابد الأثرية القديمة بصور مختلفة؟

البطل الذي في الزوج، في أفضل حالاته، هو الذي يذكِّره منظر امرأته وأدبها وحسن تربيتها بالله، ويشعر عندما يدخل ويغلق باب بيته من خلفه، وقد عاد إليها من قسوة العالم، بأن لديه امرأة مختلفة فعلًا تعكس ما بقي من خير في هذه الدنيا، وتجدد عنده الشعور بالسكينة الذي تبدد منه الكثير في أثناء ركضه في طرقات الحياة، يشعر بأن لديه من فيها من الحياء والرقة ما يجزم بأنه يكاد ينقرض بأسفل البيت وبعرض العالم وطوله من شدَّة ما غلب على الناس من قلة الصبر وقلة الاعتناء وقلة اللطف وقلة الثقة.

وهو الذي تشجعه زوجته على العبادات، وتذكره بالحلال والحرم- ولو لم تكن فقيهة بأي وجه، ولكن فقط بأرق النصائح- وتذكره بالجنة والنار، وتصبره على مصائب الدنيا، وتجعله

بهذا السمت الغالب عليها وهذا الأسلوب وهذا الوقار محصَّنًا بدرع من الخجل من أن يفعل شيئًا لا يليق برجلٍ رزقه الله بمثلها.

هذا هو البطل الذي في الزوج، والبطل أيضًا في حالة أخرى، وهو بطل أيضًا بلا شك، هو الذي لا يكون لزوجته دور واضح وكبير في أمر دينه وآخرته، ولكنها في ذات الوقت عاقلة لطيفة مؤنسة، ما أعانت فتن الدنيا عليه، ولم تنفخ في صدره نار السخط على الأقدار، ولم تحاول أن تؤجج غيرته من الآخرين كي يلحق بهم، وكانت تبذل جهدها كي تجعله متفائلًا قدر الإمكان ويحسن الظن بالله، فكانت بذلك أيضًا أفضل من الحياة خارج البيت، تلك الحياة بالخارج التي لا تمده في الغالب بالمعاني نفسها، ووجد عندها مأوى من اللهاث الذي لا ينقطع، ووجد فيها ما يصعب وجوده في الصاحب، فصارت هي خله الوفي.

وقد قال ثوبان: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضع على بعيره، فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في أثره فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ فقال: ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة.

وهذا الحديث جاءت فيه الزوجة المؤمنة كأفضل ادخار وامتلاك بعد القلب الشاكر واللسان الذاكر مباشرة، والقلب واللسان هما من الإنسان ذاته، إذن لا شيء ممَّا يغرم الرجال به ويسيل لعابهم عليه ويتقاتلون من أجله خارج أنفسهم أفضل من زوجة مؤمنة، أي إذا فتَّش الإنسان في أركان الدنيا واجتهد وسأل وخطط وحرص، لن يجد أفضل من زوجة مؤمنة، وهذه المكانة هي عظمة على عظمة في الحقيقة!

من أجل هذا أحب أن يُفهَم كلامي الكثير عن الزوجة المؤمنة والمرأة العاقلة الصالحة، على أنه محاولة إنسانية لرسم ملامح ذلك المطلوب الأغلى على الإطلاق في هذه الدنيا، أغلى الذي يمكن أن يبحث عنه إنسان ويتخذه لنفسه.

أما عكس ذلك البطل، فهو الرجل الذي هدمت امرأته من دينه، وهذا الهدم يأخذ عدة أشكال ودرجات من عنف الهدم، الذي يصل في بعض الأحيان إلى درجة يمكن أن يقال معها إنه لم يبقَ من دين الرجل أي شيء، أو لم يبق منه إلا مثل ما يظهر من أساس الحوائط، وهذا المستوى هو خيانة، بل أم الخيانات، أن تضيِّع المرأة دين الرجل، حتَّى ينساه كله، أو يحتفظ منه فقط بما

يلزم عمله للزواج والتعامل مع الموتى. وهذا النوع من تخريب دين الرجل موجود، ولكنه ليس محلًا للنظر هنا لأن الزوجة عند هذا المستوى من التخريب هي في ذات الخانة التي فيها من خانت زوجها في عرضه أو ماله، وكلامي هنا في الكتاب عن غير هذا النوع من القتل الناجز للبطل في الرجل، هذا حتَّى لو كانت التي هدمت دين زوجها تحبه كل الحب، فنحن لا نريد من الحب ما قتل.

ما يهمنا هنا أنواع أخرى من هدم دين الرجل: كالرجل الذي شغلته زوجته عن أمر آخرته، وجاءته عن اليمين والشمال، ووجهت همته وعزيمته فقط للدنيا وأخذ النصيب منها، فصار بعد الزواج أسوأ حالًا في أمر دينه وهو يلحظ ذلك ولكنه يشعر بأنه لا يستطيع أن يخرج من هذه المتاهة التي وقع فيها.

وكالرجل الذي ضغطت عليه زوجته حتَّى أرضاها بالمكسب الحرام من شدَّة حرصها على زينة الدنيا وغيرتها من الآخرين وانبهارها بحياة أهل النعمة، وقد كان لا يقرب المال الحرام وهو عازب، ويمد لحافه على قدر رجليه، ثمَّ ذاق ما ذاق وجرب كثرة المال في الجيب فضعفت عزيمته على التوقف والتوبة، وهو فوق ذلك يعلم أنها ستنقلب عليه لو عاد واكتفى بدخله المحدود، وتريه الوجه الصعب الذي يعرفه، فيجتمع عليه جبنه من نفسه وجبنه منها.

وكالرجل الذي استلمته زوجته تحريضًا ونفخت في صدره، وأخذت تؤلب فيه وتشعل الثارات، حتَّى جعلته يقطع رحمًا محرمًا تجب صلتها، فهو لا يتصل لا في الأعياد ولا في غيرها، وإن سمع نصحًا من شخص مشفق عليه بأن يصل رحمه تغير وجهه وعاند؛ وقد كان عازبًا سمحًا أكثر من ذلك وأكرم من أن يقطع رحمًا محرمًا؛ وإن جاء الأمر على خاطره بعد مدَّة فإنه يصرف نظره، لأنه يدرك أنه لو خطا أي خطوة ستنقلب عليه من في بيته، ويجد أن انقلاب مَن في البيت أشق عليه من غضب أولي الأرحام، وأشد مفسدة لأحواله، وهذا وهمه وظنه.

وكالرجل الذي أهملت زوجته حقوقه الزوجية كل إهمال، وصار لا يقربها إلا بالإلحاح وإثارة التعاطف أو بتلبية الطلبات، فتبدَّل على إثر ذلك مسلكه ووقع في سلسلة من الزلات التي لا تليق به وغلبت الشهوة على مراده، وصار يتخفى بأعمال يخشى أن يُفضح بها، حتَّى إنه صار فيه من الولع والطيش ما لم يكن به وهو عازب، ووقع في زلات لم يقع بها وهو عازب.

الزوجة وسعي الرجل

البطل الذي في الرجل هو الذي يستيقظ في الصبح بمزاج جيد، وفي حالة من النشاط والعزم والطموح والرغبة في مواجهة قوانين الدنيا بغير انسحاب أو فتور، ويتوجه إلى عمله وهو يمتلك درجة عالية من التركيز، وصفاءً ذهنيًّا يكاد يكون كصفاء نفوس الأطفال، بسبب أنه يخرج من البيت ويعود إليه وهو لا يحمل هم أن تنكد عليه زوجته وتقابله بوجه عبوس، بل لديه امرأة مريحة واسعة الصدر كريمة الطباع، تعرف ما هو الذي يكابده الرجال بالخارج في هذ العالم.

البطل الذي في الرجل هو الذي تعطي زوجته أهمية كبرى لعمل زوجها، وتتفهم ما يمكن أن يظهر عليه من تقصير في بعض الأحيان بسبب تحديات الشغل أو بسبب طموح زوجها إلى الترقية، وهي في المجمل لا تتعامل مع الشغل باعتباره ضرتها، بل هو المكان الذي على زوجها أن يحافظ عليه ويحفظ مكانته فيه، وألا يعرض نفسه للجزاءات أو شر البطالة.

وعكس ذلك البطل هو ذلك المهموم الشارد، الذي صار يتأمل في الدنيا وأحوالها بنظرة من الخوف والتشاؤم بينما الآخرون حوله يتحرَّكون بأجسادهم وعقلهم استغلالًا للفرص المتاحة، هذا بسبب أن زوجته أصابته بحزن عميق باقٍ، وجعلت على ظهره ثقلًا من شدَّة اختلافها معه، وعصبيتها، وعدم مراعاتها لحالته النفسية، وتفتيشها عما يمكن أن تضايقه به، تلك المرأة التي حتَّى يمكن أن تتصل به في أثناء عمله، بل في ساعة مهمة من ساعات عمله، وتعيد ذات الكلام الذي نكدت عليه به بالليل في البيت لأنها لا تقدر على انتظاره حتَّى يعود، وهكذا، يفقد تركيزه، ويضعف أداؤه، ويشتكى منه المدراء والعملاء والزملاء. ومنظر الواحد من هؤلاء وهو ينتحى جانبًا بجواله في طرقات الشركة ويشير بيده وهو يشعر بقلة الحيلة، وأنه يكاد ينهار تمامًا، يصعب على أي أحد يراه، لكن ليته يصعب على زوجته؛ رأيت رجلًا كانت تأتيه مثل هذه الاتصالات دائمًا فتضيق الدنيا به حتَّى إني لا أعرف كيف يتحمَّل تجرع تلك المكالمات كل يوم، وكنت أخشى أن ينتهي أمره على شر؛ هذا ولا يختلف اثنان ممَّن يعرفونه على أنه كان أفضل تركيزًا وتفتحًا وإقبالًا على العمل وهو عازب بغير مسؤولية، عن وضعه الآن بعد الزواج.

الزوجة وسمعة الرجل

البطل الذي في الرجل هو الذي يعيش بسمعة جيدة، وكانت زوجته بهدوئها ومظهرها الطيب ووقارها بجانبه جزءًا لا يتجزَّأ من سمعته، أو هو على الأقل الذي لا يعرف عنه أحد أي شيء مزعج أو مشين، وجاءت زوجته ولم تجرح هذا الانطباع بأي نقص.

والبطل الذي في الرجل هو الذي دخلت زوجته في عائلته، ودخلت بيته، وعرفت أشياء لم تكن تعرفها، لكنها لم تتكلَّم مع الأخريات عنه أو عن أهله أو عن جذوره بشيء تعرفه يمس الزوج ويضعف صورته بين الذين يعرفونه، وكذلك لم تكتب في مواقع التواصل بنبرةٍ فيها قدر من التهكم والحزن شيئًا يمكن أن يستشف الآخرون منه أن هذه كلمات امرأة غسلت يديها من زوجها، ويظنون بزوجها سواءً كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه الظنون.

وعكس ذلك هو الرجل الذي قللت زوجته من قدره في محيطه، وجعلت تصنيفه يقل عن ذي قبل عند الذي كانوا يحترمونه، عن طريق اقتراضها من النساء وتسويفها، أو اختلاطها بنساء على شاكلة تافهة من الجارات الثرثارات والنمامات وخرابات البيوت، أو ممَّن يمكن أن يتهمن بعضهن بعضًا بالسرقة أو أن فلانة نظرت إلى زوجي وما شابه من أحاديث غير مسؤولة وموجعة.

وعكس ذلك هو أيضًا الرجل الذي أضرَّت زوجته بسمعته بملابسها التي لا تليق بوقاره أو اعتداله، إن كانت تتخطى بملابسها ما هو مقبول وغير مستغرب في منطقة سكنه وبين أفراد عائلته، ولا أقصد ما يلزمه الشرع وهو الأولى بالناس، ولكن أقصد من الملابس ما يظن المحيطون أنه ليس مناسبًا وملفتًا.

وعكس ذلك هو الرجل الذي تزوج من امرأة اجتماعية وجريئة وتختلط بالناس بثقة في النفس ونية حسنة حسب أجواء نشأتها، لهذا يمكن أن تطيل الوقوف قليلًا مع بائع شاب في سوبر ماركت أو كشك أو خياط أو فني تصليح أي أجهزة، فوق الوقت الذي تستلزمه حاجتها لخدمته، في منطقة سكنية ليس هذا طبع النساء المعتدلات فيها، وهي تفعل هذا كله غير محتاطة أي احتياط من كلام الناس، بينما زوجها نفسه قليل الاختلاط لا يقف مع أي أحد من هؤلاء إلا بقدر حاجته.

وعكس ذلك هو أيضًا ذلك الرجل الذي لم يكن الناس يسمعون صوته في بيته ولا حتَّى عند إحراز الأهداف في النهائيات، وصار من بلاء هذا الرجل الذي هو مثل النسمة بعد كل هذا أن الناس صاروا يسمعون صوت زوجته التي لا تملك نفسها عند الغضب وتصيح بأعلى صوتها فيه، وبدأ الجيران حتَّى في العمارة المواجهة يعرفون أن هذه الأسرة على غير الوفاق- رغم أن بقية الأسر يمكن أن يحدث فيها مشكلات ولكن بصوت منخفض- فصار هذا الصوت العالي

المنفلت الذي يصل بعيدًا مصدرًا لشعوره بالحرج ومصدرًا لخوفه من تساؤل الناس عن مدى قوة شخصيته أو نوعية السقطات التي يصر عليها فيرتفع بسببها صوت زوجته عليه بعد أن فاض بها الكيل.

في جميع تلك الصور من الإساءة للسمعة، التي هي دون مستوى المساس بالعرْض، تكون المرأة قد جنت على زوجها إن كان قد أثار طيلة عمره كامل الاحترام والطمأنينة وهو يمشي وحده في هذا الشارع عندما كان عازبًا، ثمَّ صار أقل هيبة واحترامًا أو صار مثيرًا للشفقة، بعد أن ظهرت زوجته بأفعالها هذه في الصورة.

الزوجة ومال الرجل

البطل الذي في الزوج هو الرجل الذي تحفظه زوجته في ماله، فهي تعتني بالممتلكات والأثاث والأجهزة، وتطيل عمرها قياسًا بالنساء الأخريات، وهى لا تحمله فوق طاقته في نواحى الاستعراض والتفاخر وما لا لزوم له، وتحاول أن تقاوم فيه النزعة إلى إتلاف المال في غير فائدة إن كان هذا من طبعه.

البطل الذي في الزوج هو الرجل الذي إذا وقع في ضائقة كبيرة أو صغيرة ربما وجد زوجته تقدم له بكل رضا شيئًا قد ادخرته لمثل هذا اليوم الصعب، مثل سائق السيارة الأجرة القديمة الذي قال لي منذ سنوات عن زوجته إنها أمه الثانية، فاستغربت من التشبيه، فقال لي إن حنانها عليه رغم ضيق الحال في مثل حنان أمه، وذكر لي أنه قد عاد مرة مهمومًا بسبب الضعف الشديد للبطارية، وعندما قام لينزل في الصبح ابتسمت له ابتسامة حانية وأخرجت له ثمن البطارية، وقالت: هذا مالك ادخرته، وهو فداك، فلا تعكر مزاجك واشتر بطارية جديدة.

وعكس ذلك البطل هو ذلك الرجل الذي تزوج امرأة مهملة يمكن أن يفسد ما في بيتها من أثاث وأجهزة بسرعة، وكذلك من تزوج المرأة التي يغلب عليها الكسل فتحدثها نفسها كل يوم بأن الأسهل هو طلب الطعام بالهاتف جاهزًا بدلًا من إعداده بالبيت، وكذلك من تزوج المرأة التي تحمِّل زوجها فوق طاقته من أجل أن تساير الآخرين في شراء أشياء ليست ضرورية وتستقيم الحياة بغيرها، مثل كعك العيد أو غسالة الصحون أو شراء عدد هائل من الفوط لجهاز البنت، ويمكن أن يصل الشجار بينهما إلى حد الطلاق على مثل هذه المصاريف، وكذلك

من تزوج المرأة التي تعجز عن مقاومة إغراء الأسواق وجديد الأسواق، وإن خرج معها زوجها خاف من أن لا يملك السيطرة عليها هناك.

هذا عن المال وحفظ الرجل في ماله، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلَّم مادحًا نساء قريش: نِساءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإبِلَ، أَحْنَاهُ على طِفْلٍ وأَرْعاهُ على زَوْجٍ في ذاتِ يَدِهِ. أي أنهن خير نساء العرب، بخصلتين حميدتين: الحنان مع الطفل، والتدبير في مال الزوج.

هذا قدر كاف لعل فيه الكفاية في أمر البناء والهدم؛ ولن يستطيع الإنسان أن يعرف ما فعلت يداه في شريك الحياة إذا ما كان ينظر فقط إلى عمله في البناء، وإذا كان فقط يعد كل جميل قام به، ويتجاهل تمامًا دوره في الهدم، الذي هو واقع لا محالة، حتَّى لو كان الهدم الذي حدث قد حدث رغمًا عنه وما كان يرغب أبدًا في أن يجني على شريكه، فأغلب من هدموا فعلوا هذا رغمًا عنهم؛ إن الإنسان لن يستطيع أن يتوقف ويقيم التجربة بشكل منصف إلا إذا نظر في هذه الهوة التي قد تكون في بعض الأحيان مرعبة.

خير متاع الدنيا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِها المرأةُ الصالحة)؛ وربما يكون أول ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن عندما أتكلم عن الزوجة الصالحة، أو الزوجة العاقلة، أو الزوجة الودود، أو الزوجة المؤمنة، أو خير متاع الدنيا، يكون صورة امرأة هادئة لطيفة ينظر إليها زوجها بكل امتنان، ويروح ويعود بلهفته لها وإقباله عليها لا يحب أن يفصل بينهما أي شيء، هذا ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن في الغالب.

لكن كان من الأدب والاحترام مع كل من فعلن ما عليهن وزيادة، وهن كثيرات، صاحبات الأمنيات الجريحة، أن أبدأ هذا الفصل الأخير بهن، بأن أقول إن امرأة جديرة بكل هذه المسميات العزيزة، المرأة التي هي أفضل الذي يمكن الحرص عليه في الأرض، يمكن أن تكون امرأة كان من حظها أن تعيش مع رجل لا يقدرها ولا يرد الإحسان بالإحسان ولا يرى مزاياها، ويعرضها للمعايرة والاستخفاف والمضايقة، وربما يتمنى غيرها، وربما يجعلها من سوء عشرته تشك في نفسها وتشك في صلاحيتها للسعادة؛ بل ويمكن أن تكون المرأة الصالحة هي زوجة قد طلقها زوجها وقد عانت معه الأمرين في خلال الحياة الزوجية التعيسة وبعد الطلاق، وربما كلما تكلم معها أحد لامها على أنها لم تحافظ على بيتها، حتَّى نصيبها في المواساة كان قليلًا؛ أي أن خير متاع الدنيا قد لا يدرك من عاشت معه أنها خير المتاع؛ أي أنه ليس بالضرورة أن كل امرأة جيدة تعيش قصة جيدة، وليس بالضرورة أن كل رجل لم يشعر بالرضا والقناعة مع زوجة هو يعيش مع امرأة سوء، كان من الضروري أن أفتتح بهن، وألا أتخطى هذا الأمر المؤلم كي أحكي مشاهد جميلة براقة باسمة، لكنها منزوعة من مفارقات الحياة.

وقبل أن نتكلم عن لمحات من روح المرأة الصالحة وعملها المبارك ونفَسها في البيت الذي لا شيء مثله، كان من الضرورة أن أتكلم عن فئة من النساء كان بالإمكان أن يصلن، يصلن إلى منزلة الصلاح العالية، ولكنهن لم يصلن، إذن ومن باب النصح والتوجيه أتبع الفئة السابقة من النساء اللائي تعبن في الحياة الزوجية بسب زوج لم يحمد النعمة، بهذه الفئة ممَّن لم يوفقن رغم أنهن بالفعل خامة جيدة، هذه الفئة ممَّن فيهن العقل والصلاح، ولا ينقصهن الجدية، ولا ينقصهن الجدارة للتصنيف كزوجات طيبات جيدات، ولكن كان في طباعهن ما يمكن أن يكون عائقًا عن الوصول إلى السعادة الزوجية.

ومن ضمن هذه الفئة تلك المرأة التي تمتلك عزيمة قوية جدًّا، وجدية تامة، ولكنها لم تصل إلى الحياة المنشودة؛ وبالطبع فإن أول ما يمكن أن يتذكَّره القارئ وقتئذٍ، هو نموذج لامرأة ما من هذا النوع يعرفها كانت قوية العزم وتبشر بخير، ولكنها لم تحصد السعادة، ثمَّ يمكن بعد ذلك للقارئ أن يفكر في تلك الأهمية المتفق عليها للعزيمة، وبخاصة في هذا العصر الذي ساد فيه خطاب أن يتحدى الإنسان نفسه ويخرج المارد، الكل يصيح ولهم الحق: العزيمة.. العزيمة.. العزيمة.

ها هي العزيمة موجودة بوفرة عند هذه النوعية من النساء، ومع ذلك لم تحصل تلك المرأة الجادة على الحياة التي حرصت عليها، وعاشت في أجواء أقل سعادة من أجواء أسر أخرى بها نساء أقل عزيمة وأقل حدة وأكثر استرخاءً وأكثر فوضوية، فماذا حدث؟ لماذا بطل مفعول وصفة العزيمة الأوسع انتشارًا من الأسبرين؟

ما حدث هو أن الحياة نفسها بتفاصيلها العجيبة أحيانًا ما تهمس إلينا بشكل أو بآخر بأنها تمتلك كمًا لا بأس به من الحكم الأخرى التي لا تقل نفاسة عن العزيمة التي يصيح بها الكل: إنها تقول مثلًا إن البقاء أحيانًا ما يتطلب أن يكون الإنسان بسيطًا وسلسًا ومتعاملًا مع الواقع كما هو، وقادرًا على تقبل الأشياء التي جاءت على غير الصورة التي تمناها، ولا يأخذ كل الأمور على صدره، يتطلب ذلك الذي يسمى: التعايش؛ وهو ما لا يقل في الأهمية عن العزيمة بأي حال.

فعندما يكون هناك مصعد مزدحم ولا يتحرَّك من مكانه، ولا يحدث فيه إلا أن صاعدين جددًا يدخلون ويتكدسون مع الآخرين، يحدث أن يغادره بعد شيء من التململ والضيق والاحتجاج من كانوا صاعدين لأكثر الشؤون جدية، مثل من هم صاعدون لعيادة طبيب، أو لاجتماع إداري؛ يتأففون ويخرجون تباعًا، بينما يبقى أصحاب المزاج الرائق والثنائيات العاطفية أكثر صبرًا؛ فالجادون وأصحاب العزيمة في الغالب هم الأكثر نقمة إذا لم تسر الأمور كما يريدون؛ والمصعد ليس إلا مثالًا في الحقيقة، وعش الزوجية ينهار أحيانًا بسبب أن أحد الطرفين يأخذ الأمر على نحو جاد جدًّا، ويظن أن العلاقة الزوجية كان يجب عليها أن تعلو به إلى منطقة سامية ما كان يعرفها عندما كان وحيدًا؛ وفيه وساوس عظيمة تدفع ذاته كل يوم وبلا رحمة للخروج من العلاقة، العلاقة التي يراها وهو في كامل غيظه خامدةً ثابتةً لا تتحرَّك من مكانها تقريبًا مثل المصعد، وهو إما أن يخرج في النهاية بضغط قوة الخروج الرهيبة التي تعمل فيه،

أو يبقى في مزاج سيئ جدًّا كما يمكن أن يبقى شخص جاد داخل المصعد وهو يشعر أنه مغلوب على أمره وأنه في أجواء شديدة السخف، وأن مجرد ابتسامة أحد بجواره هي شيء في قمة الاستفزاز.

من الممكن أن أقدم هنا هدية للنساء القارئات وقد أوشكنا على النهاية، شيء سري: أغلب الرجال يكون بداخلهم هذا السؤال التعجبي يعيشون به طول العمر موجهًا فيهم للزوجة: ما لها مكبرة المواضيع هكذا؟!

نعود إلى المرأة الجادة، والمرأة الرائقة، المرأة الرائقة إذن هي التي لا يسأل زوجها نفسه كثيرًا عن السبب الذي يجعلها مكبرة للمواضيع، لأنها في الغالب لا تكبر المواضيع، نقطة امتياز رهيبة؛ إذن حتَّى لا نستهتر بقدرات الناس الذين يبدون أقل منَّا يقظةً واستعدادًا، كما يمكن أن تستهتر امرأة جادة بامرأة أقل جدية، يجب أن نفهم أن إنسانة رائقة البال وتحب التمتع بالحياة، وتميل إلى المرح، وتعطي الأمور حجمها أو أقل من حجمها، وتغسل نفسها أولًا بأول من أثر الخصام، يمكن أن تحافظ على علاقة زوجية ناجحة، فيما يمكن أن تعجز عن ذلك امرأة فيها قدر من الشدة وتعرف ما لها وما عليها، إنسانة ليست لينة بالقدر الكافي، ولا تعتمد على أن يغفر لها أحد شيئًا ولا تحب كذلك أن يعتمد أحد على أنها ستفوّت له كثيرًا؛ صدمة الجادة في هذه الحالة عندما تفشل بينما نجحت التي تبدو مستهترة وعاشت بضحكتها، يكون شبيهًا أو أكثر بصدمة الطالبة المجتهدة التي لا تغيب عن أي حصة دراسية وتذاكر يوميًّا، وتتعجب دائمًا من ضعف همة الآخرين، عندما تفشل هي وتنجح الزميلة المهرجة، والحقيقة أن الفارق يكمن في أن الجادة المجتهدة تتعامل مع مواضيع، والرائقة تتعامل مع نفسية الرجل نفسها.

ومن هذه الفئة أيضًا، فئة المرأة التي كان يمكن لها أن تصل إلى منزلة الزوجة الصالحة ولكنها لم تصل، هي تلك المرأة المخلصة لزوجها، والتي تحسن تربية أبنائها، والني تحفظ زوجها في مال وعرضه، والتي يستند عليها زوجها بعد وقعاته، ولكن بينها وبين الإحسان مسافات رغم ذلك بسبب أن بها حرارة داخلية لا تستطيع السيطرة عليها، حرارة تجعلها تعمل بعمى الغيرة والسيطرة على أن تحيط أسرتها بسياج عال وتفصلها عن العائلة الكبيرة، وأن تنزل الجليد شيئًا فشيئًا في الطريق بين زوجها وأهله وأمه على الأخص، حتَّى يكون التواصل بينهما غير مقطوع ولكنه دون المستوى ودون آمال الأم في اهتمام ابنها، ابنها الذي يجد نفسه

يحاول وزن الأمور في هذه الحرب الباردة قدر الإمكان، لكنه يرى صنيع امرأته الجيد في حياته، ويرى أنه في نهاية الأمر يعيش مع زوجته تحت سقف واحد، فيميل قليلًا إلى كفة زوجته تجنبًا للمشكلات، يميل إلى ذلك بعينين معتذرتين.

إن مجرد أن يشعر الرجل شعورًا قويًّا بأنه يجب ألا يستفز شعور زوجته بالغيرة من بره بأمه، هو في حد ذاته يطعن في كمال زوجته وإحسانها، وفي الغالب تدور الدوائر على هذا السلام الذي بين الرجل وزوجته، إن كان ثمنه غصة في قلب الأم، تدور بقدر سمْك طبقة الجليد التي صنعتها الزوجة في الطريق بين المرأة وابنها.

ومن هذه الفئة أيضًا، فئة المرأة التي كان يمكن لها أن تصل إلى منزلة الزوجة الصالحة ولكنها لم تصل، هي تلك المرأة شديدة الاهتمام بأي تفصيلة في بيتها، ولا يفوتها شيء، ولا تتأخر في القيام بأي عمل، ولكنها معجبة بنفسها جدًّا، وتشعر بشكل مبالغ فيه بالرضا عن النفس وأنها تؤدي دائمًا ما عليها، وليس لأحد أي حق في أن يوجه إليها أي ملحوظة سواء كان الزوج أو الأولاد، فهي تعمل ما عليها وزيادة.

وبسبب هذا الشعور المتغلغل فيها هي دائمًا لا تمتلك نبرة وديعة، بل نبرتها مقدامة وتميل إلى أن تكون هجومية بداعٍ وبغير داعٍ، ولا تعرف كيف تستخدم اللوم الحاني والعتاب الرقيق، بل هي دائمًا تقول إنها على حق، وصوتها مع زوجها يشبه صوتها مع الآخرين، كأنها تكلم زميلها في العمل؛ والرجل بطبيعة الحال يحب أن يشعر أن زوجته حتَّى لو اتصفت بين الناس بالقوة والعناد والعزيمة توجه إليه نداءً خاصًا، بنبرة خاصة، تحمل الود والاعتزاز، حتَّى في لحظة الغضب.

أما الآن فلنحاول أن نرطِّب هذا الفصل الأخير والحديث الختامي بالتعرف بطريقة لطيفة على بعض الملامح الجميلة لنفسية الزوجة القدوة الصالحة، والتعرف على الذي يمكن أن تفعل الزوجة الصالحة في نفسية رجل يقدرها، ونتمنى لو كان هذا العالم يحتمل أن تنال كل زوجة صالحة التقدير من زوجها.

المرأة الصالحة تصنع لأي رجل مهما كان ضئيلًا في هذا العالم القاسي عرشًا، في مملكته الخاصة، التي هو فيها غير مغلوب على أمره، نعم، ولكنه ليس العرش المزخرف الذي يمكن أن نراه في الأفلام التاريخية في القصور العظيمة، عرش الرجل ممكن أن يكون مجرد وسادة

صغيرة من القطن، تلك الوسادة التي يقال عنها في العامية المصرية: (شلتة)، نعم مجرد شلتة على الأرض، يجلس عليها في صالة شقته وامرأته تستمع إليه باهتمام، وتفهم ما يريد التعبير عنه، ويتوافقان معًا على ما يجب عمله في أعقد أمور حياتهما أو أبسطها، من دون أن ينهك أحدهما الآخر؛ عرش الرجل حيث يجلس بجانب امرأة تحب أن تكون أحن إليه من ذلك العالم الخارجي كله.

المرأة الصالحة ترى أن الرجل مهم، هذه فكرة أساسية عندها، وهي بهذا قد اجتازت عقبة كبرى، فهي محصنة من موجة التقليل من شأن عامة الرجال التي اجتاحت هذا العصر؛ وأهمية الرجل تقودها لاحترامه والاعتراف بقوامته، وهي لا تنفق جهدها ولا شيء من جهدها في خلخلة ثقة الرجل بنفسه، وتؤمن بأن طاعة زوجها تفتح لها باب الجنة بإذن الله.

أحد الفروق الرئيسية بين الأجيال الحالية من النساء والأجيال القديمة من ناحية التعامل مع الزوج، ينبع من التوسع غير المسؤول في نشر فكرة أن الرجل ليس مهمًّا، آلاف القصص الحقيقية بجانب قصص أخرى مختلقة تتكلَّم عن الرجل الذي لا يعمل بينما تشقى امرأته، أو الرجل الأقل نجاحًا من الناحية المهنية من زوجته، أو الرجل منخفض الطموح والمواهب، ولم يؤد هذا إلى محاصرة ظاهرة الزوج العالة وهي ظاهرة مخيفة موجودة بالفعل ضمن حالة التردي الاجتماعي العام، فهؤلاء الرجال أصحاب الجلد الثخين لم ينالوا أذى من هذا الكلام، ونساؤهم قمن بالفضفضة والسلام، واستمررن في تدوير الساقية بكل أسى، ولكن كل ما حدث هو أن الرجل الذي يعمل في وظيفة أو وظيفتين، ويفكر قبل شراء جورب جديد لأن أبناءه أولى بكل قرش، صارت امرأته تشعر بأنه قليل الأهمية، بسبب ما تؤكد عليه قصص النساء التعيسات في المجموعات الخاصة وجلسات الثرثرة المفتوحة في أي مكان ولو عيادة طبيب.

المرأة الصالحة تدرك أن الرجال هم الذين أصابهم من الدنيا ما أصاب والدها في السعي، وهي قدَّرت ما كان والدها يستطيع ولم تجحده، والآن هي تقدر ما يستطيع زوجها، وهي برضاها الزواج من هذا الإنسان هي تكون قد تقبَّلت أن تقف معه تمامًا، فيتبادلان معًا معالجة الجروح التي نالت منهما في رحلة الحياة، المرأة الصالحة تعامل زوجها بناء على بذله وتفانيه ولو شاب تعامله بسبب صعوبات الحياة شيء من التقصير، ولا تعامله بالطبع على أساس ما يقال في العموم عن الرجال كما تفعل غيرها!

المرأة الصالحة تهب الرجل الطمأنينة وتهدئ من روعه، فالرجل يطيب له أن يسمع بحمد الله من صاحبه، ومن جاره، ومن زميله، ومن خطيب الجمعة، فتحدث له طمأنينة، لكن هذا الحمد من الزوجة وهي تقول له نحمد الله على ما نحن فيه، نحن أحسن حالًا من غيرنا، وقد أتانا الله الكثير من فضله؛ يُحدث له من الطمأنينة ما لا يحدث له إن سمع الحمد من غيرها؛ وعلى العكس من ذلك، فإن المرأة الساخطة الناقمة قليلة الرضا، تُذهِب عن الرجل إن عاد إليها، ما حمل معه من طمأنينة من الخارج، وما عاد به من صبر، ولو كان قد جاء من درس لعالم كبير بليغ عن صبر العباد على الدنيا.

المرأة الصالحة لا تغضب على الرجل إن وجدته منهمكًا في سلواه، بل تسعد بسلواه، فإنها إن عاشت مع رجل صالح دخله أقل ممَّا هو مأمول، أو أن دخله جيد ولكنه يمر بضائقة ما، وتعرف أن زوجها مكافح وغير متواكل وليس هينًا عليه أن يعيش أهله في ضيق، يرضيها أن ترى زوجها هذا يعيش بعض الوقت العرضي متناسيًا همومه مبتسمًا منشرح الصدر، وترجو أن كل هذا يجدد طاقته، ويمنع عنه الحزن والكآبة، ويحفظه من أن يهلك ذاته، ويمنع عنه مظاهر الانكسار أمام الناس؛ وهي في هذا تمامًا مثل الأم التي يسعدها أن يجد ابنها من يحيط به في وقت شدته ويخفف عنه ما هو فيه ومن يروِّح عنه؛ وعلى العكس من ذلك، فهناك من يمكن أن تشعر في مثل هذه الظروف بالاستفزاز تجاه وجه الرجل وهو منفرج الأسارير، ويوسوس لها الشيطان أن هذا بارد بليد لا يبالي ولا يستوعب حجم المسؤولية، وأن عليها أن تقطع عليه نعيم مرحه العابر، وتعاقبه وتذكّره الآن بكل الهموم، وشتان بين حال رجل اتسع بيته لتحمُّل بسمته، ورجل ضاق بيته بالابتسامة.

المرأة الصالحة جمهور زوجها، نعم؛ تجد لاعب حركات الخفة، أو الحاوي، أو ممتهن الاستعراضات الشعبية، يقف بملابسه المتسخة، وبكلبه الهزيل، وأطواق نيرانه، وحباله، وأدواته شديدة البساطة، في شارع من الشوارع، ويتلقى قدرًا كافيًا من التشجيع من الجمهور الذي يغلب عليه التعاطف والتقدير والفرح بأي شيء، ويستمع إلى تهليل الأطفال الذين بلغت بهم الدهشة مبلغها.

وتجد محترفًا آخر على مستوى أعلى، يمارس نشاطه في السيرك وأندية السهر والترفيه، ويقدم فقرات خفة أكثر إثارة، ويتقاضى أجرًا أعلى، ولكن تجد الترحيب بالفقرات رغم براعتها

هو في حدود معقولة تمامًا، إذ إن الجمهور هنا من النوع الذي يصعب إدهاشه بالأساس، وتعبيره عن الابتهاج هو تعبير مقتصد ومعتدل.

يكون من رزق الناس أن يجد بعضهم من يقدر منهم القليل، ويكون من رزق الناس أن يجد بعضهم من لا يقدر منهم الكثير إلا بصعوبة، وربما لا يقدر.

المرأة الصالحة هي جمهور زوجها الوفي، الذي يقدر الجهد والتعب والشقاء والسعي، ويسعد بما تيسر عمله، إنها مع الفارق طبعًا شبيهة جمهور الحاوي الحر؛ وأغلب الرجال يحبون أن تطير الزوجة بأغلب المفاجآت التي يقدمونها مهما كانت شبيهة أو أقل ممَّا يفعل الآخرون، أغلب الرجال يحبون أن تشعرهم الزوجة بأنهم في وسط الحلقة، ومحور المشهد، ولا يحبون من النساء التقييم بعين محايدة ومستخفة.

المرأة الصالحة تعطي للزوج حجمًا أكبر من حجمه عند الناس، هكذا بوضوح، لأن حجمه عندها من الصحيح أن يكون أكبر من حجمه عند من لا يهتمون به كثيرًا ولا يهتم بهم، وفرصة هذه المرأة الصالحة للتفاهم مع زوجها، مهما كان فيها بعض الهنات، هي أكبر من فرصة التفاهم لامرأة أعطت لزوجها الشعور بأنها حدَّقت إلى عيوبه وعرفت حجمها وتفاصيلها، مهما كان فيها بعض الإيجابيات؛ هذا ببساطة لأنه يشق على كثير من الرجال التعايش مع امرأة نقلت إليهم شعورها بالإحباط.

والمرأة إن كانت ذكية فوق أنها صالحة، تساعد زوجها بلطفٍ على أن يرفو الشقوق التي في شخصيته وفي عينيها في أثناء ذلك يظهر الولاء لا الإحباط، والمرأة الأكثر ذكاءً هي التي إذا ما رفا زوجها شقًا في شخصيته وهي بجانبه، تتصنع أنها لم تعد تعرف أين هو ذلك المكان الذي أصلحه، كأن ما طبَّع نفسه عليه بعد جهد هو طبعه، فلا تذكّره كيف كان ثمَّ كيف صار.

المرأة الصالحة مريحة للرجل، تجعل الرجل في منطقة أخرى غير التي فيها من يعانون من الزوجات المتعبات، منطقة أخرى تمامًا، حتَّى لو منع الجحود بعض الرجال من تقدير تلك النعمة؛ فالرجل الذي تشعره زوجته بأنها مؤمنة به، وأنها تستطيع أن تختبئ من عواصف الحياة خلف ظهره، هو في منطقة أخرى غير التي فيها ذلك الرجل الذي تبادره زوجته في كل موقف بالتشكيك في قدراته ولو بنبرة صوتها أو نظرات عينيها.

والرجل الذي تهتم زوجته برضاه، ويشق عليها حزنه منها ولا تحب أن ينزل إلى الحياة وقد أتعبته، هو في منطقة أخرى غير التي فيها ذلك الرجل الذي يعيش مع امرأة تعانده وتحب أن تثبت دائمًا وأبدًا أنها على حق، وأن عليه أن ينزل عند رأيها أو تعاقبه بالتجاهل والخصام.

والرجل الذي تضع زوجته أولوية لأن تحافظ عليه قدر الإمكان من صعوبات المعيشة، وتهتم بأن يبقى محتفظًا بمعنوياته وصحته الجسدية والنفسية ولياقته الاجتماعية، هو في منطقة أخرى غير التي فيها ذلك الرجل الذي تضع زوجته أولوية لما يمكن أن يُؤخذ منه ولو بالضغط والعصر حتَّى آخر قطرة في روحه.

والرجل الذي تقابل زوجته مودته وتعبه ولمساته الجميلة بالشكر والثناء والمديح، وتحابيه في ذكر مزاياه، هو في منطقة أخرى غير تلك التي فيها ذلك الرجل الذي تأبى زوجته أن تشكره أو تمدحه كأنها تخاف أن يصدّق نفسه وتخاف أن يرتاح قليلًا من تعب إرضائها الذي يدور في ساقيته بغير نهاية.

المرأة الصالحة تدلل زوجها، وهي بهذا تتفوق على أصناف كثيرة من النساء يتمتعن بمزايا أخرى واضحة ومهمة، وهذه المرأة الصالحة التي تدلل زوجها يتمتع زوجها بروح في جو البيت لا يعرفها أساسًا غيره من الرجال، ولا يتخيلونها، وتكون الأسرة هي البقعة التي يشعر فيها بقيمته وكرامته حتَّى لو كانت الأمور تسير على غير هذا النحو في أي مكان آخر.

تدلل زوجها لا أقصد بها أن تطعمه في فمه، أو تسميه اسمًا من أسماء التدليل، أو تزرر له أزرار قميصه، بل الأمر أهم من هذه التفاصيل الودودة، تدلل زوجها أي تعامله معاملة حسنة فيها نوع من السخاء، وتحب مراضاته، وتعبر عن مكانته الأولى عندها، وتفرح منه بأي لمسة جميلة، وتشجعه على أي تقدم ولو كان خطوة، وتحب أن تبشره بكل خير، وتحب أن تنقل له الأخبار السيئة بطريقة تخفف من انزعاجه، وتميل إلى أن تصدقه فيما يعد بأن ينفذه في المستقبل.

إن الأمر يتعلق بشعور بالمكانة الخاصة، كتلك المشاعر التي تشعر بها المرأة تجاه الابن الأكبر، والعين المليئة بالحب اللا محدود، كتلك النظرة تجاه الابن الأكبر.

التدليل هنا هو الأسلوب الذي ينتج عنه أن يشعر الطرف الآخر، سواء كان الزوج، أو الابن الأكبر، بأن مكانته مستقرة تمامًا، وأن له أن يطمئن إلى الأبد من ناحية الشعور تجاهه، وأنه لا

شيء جميل منه سينسى الطرف الآخر التعبير عن الإعجاب به، فكل شيء جميل تفيض به العينان، والعين تدلل بطريقة عجيبة، بغير أي أثر للتصنع، وكل ما يفيض منها يصل.

المرأة الصالحة إذا نظر إليها زوجها سرته، كما في نص الحديث، والسرور لا يغلب على الرجل إن كان في بيته ونظر إلى امرأته من جمال ملامحها فقط، ولكن يأتي كذلك من تزينها له وعنايتها بنفسها، والسرور لا يغلب على الرجل عندما ينظر إلى امرأته من جمال ملامحها ومن عنايتها بنفسها فقط، ولكن يأتي كذلك من إقبالها عليه وطلاقة وجهها، ورغبتها في أن يكون الوقت الذي يجلس إليها فيه هو وقت ترويح له يتعافى فيه من مصاعب الحياة.

وقد يحدث أن تكون المرأة فائقة الجمال، وعندما يتوجه زوجها إليها بوجهه يشعر بالغم والضيق، لأن الإنسان إذا أقبل بنظره على آخر، يكون في النظرة خلاصة ما عاين منه وما ذاق من طباعه؛ فإن كانت المرأة عصية عنيدة مكابرة، أو جلفة طويلة اللسان، فإن زوجها لن يشعر بالسرور ولو كانت فاتنة؛ وعلى العكس من ذلك يشعر الرجل بالسرور عندما ينظر إلى امرأته حسنة المعشر اللينة، ولو كانت وسطًا في ملامحها وزينتها، لأن أدوَم السرور وأثبته وأعمق طبقاته في النفس هو ذلك الذي يأتي من حسن الصحبة.

غير جمال التقاطيع، وروعة التزين، هناك أشياء يمكن أن تتحلى بها المرأة وتجعل زوجها ينظر إليها راضيًا مسرورًا: المرات التي تشكره وتمدحه فيها على أشياء قدمها لها وهي قليلة، الحنان الذي يشع منها ومن صوتها عندما تواسيه في لحظات ضيقه، وعندما تفاجئه بشراء شيء له لأنه يحبه، وعندما تنظر إليه بحب وسرور وهو يقضي بعض الوقت في هواية يحبها وترمي له نظرة تقول له إني سعيدة لأنك سعيد، وعندما يسمعها تكلم أبناءهما عنه باحترام وتقدير وتوضح لهم مدى تعبه من أجلهم، وعندما تحسن إلى من يحبهم فقط لأنه يحبهم.

المرأة الصالحة لا تحاكم رجلها عاطفيًّا بمقاييس ملوك الغزل في المسلسلات ومقاطع التيك توك ومقاطع اليوتيوب، هي لا تحكم عليه بأنه بخيل عاطفيًّا لأنه لم ينزل على ركبته كشباب الجامعات، ولم يصنع بالضرورة قلبًا باستخدام أصابع كفيه، ولا أي شيء من جملة ما يتم تسويقه كتعبير عن الحب، ولا حتَّى تقارنه بزوج إحدى صاحباتها المغرم بأساليب التعبير التي تعجب النساء.

إنها تشاهد كغيرها طرق الأزواج والزوجات الحديثة في التعبير عن المودة والألفة، في الواقع وعبر الشاشات، ولكن ليس كل ما تشاهده يثير إعجابها وغيرتها ويجعلها تشعر بأن شيئًا ما ينقصها، وهي تعرف جيدًا وبحكم حصانتها وعقلها الراجح أن هناك فرقًا كبيرًا بين رجل طيب وقور يلزق خده بخد زوجته مودةً ورحمة وإحسانًا ورضا بصنيعها معه، بعيدًا عن العالم، بينهما وبين العالم كله وحتَّى أقرب الناس ستور الحشمة واللطف المرخاة، وبين رجل يلزق خده بخد زوجته في مقاطع التيك توك؛ وهو فارق شاسع.

أن المرأة الصالحة العاقلة الرزينة تعرف ذلك الفارق الكبير بين صورة الإحسان المطوية عن العالمين التي لم يفقد الرجل فيها غيرته ولم تفقد المرأة فيها حياءها، وبين تلك الصورة التي يتمتع فيها الزوجان بجرأة وجهر الباعة الذين يعرضون بضاعتهم على الأرصفة.

المرأة الصالحة لا تحزن على أساليب الغزل التي لا تجدها من زوجها ولا تناسبها، فهي تنأى بقلبها عن كل ما لا يناسبها ولا تنشغل به، ربما تتفرَّج عليه، لكن لا يحدث فيها ذلك الهم الذي يمكن أن يحدث لدى امرأة شاهدت ما لا يناسبها فركَّزت في أنها لا تجده ولم تركّز في أنه لا يناسبها.

وعلى خلاف ذلك: تقدر المرأة الصالحة اللفتات العفوية الحانية التي يمكن أن تقع عليها عينيها مثل أن يمسك الرجل بيد زوجته في الطريق، أو يحمل لها المظلة كي يقيها الحر، أو يقف عند باب غرفتها في المستشفى يرجو الله أن تقوم بالعافية، أو أن تشاهد رجلًا وامرأته يتهامسان ويتشاوران بطريقة تدل على عمق ما بينهما، وهي تفكِّر وقتها في هذه المشاهد بقلب إنسان يرضيه أن في هذا العالم بقية من معروف ومحبة غير مغشوشة البريق.

جدول المحتويات

طيف البداية	9
قبل أن يتحرَّكالقطار بالعروس	13
لا تقتلي البطل في زوجك	16
البطل الذي يوفرالشعور بالأمان	28
البطل الذي تعمل زوجتهعلى إرضائه	36
نادي المتزوجات	45
البطل الذي تحبه زوجته	55
البطل الذي تعتز به زوجته	65
البطل الذي لا يعجز في أن يشرح لزوجته شيئًا	76
سراح الجرو(البطل الذي له إرادة كاملة)	86
البطل الذي لا تضعه زوجتهفي وضع المقارنة	97
البطل الذي تقال له عيوبه بأفضل طريقة ممكنة	106
وجه تلك الفتاة أضاء(البطل الذي تحترم زوجته غيرته)	114
البطل الذي لم تهدم زوجته في بنائه	126
خير متاع الدنيا	136